الرسالة 605

جوانب من تاريخ مملكة تَادْمَكَّة
في ضوء نتائج الحفائر الآثارية
وشواهد القبور من منتصف القرن الثالث
حتى نهاية القرن السادس للهجرة/9 - 12م

د. بطل شعبان محمد غرياني

قسم التاريخ – جامعة القاهرة

جمهورية مصر العربية

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – الحولية الثالثة والأربعون 1444هـ/2022م

المؤلف:

د. بطل شعبان محمد غرياني

- أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد، قسم التاريخ، كلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

الإنتاج العلمي:

أولاً - الكتب:

1- المهمشون في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء... العامة في دولة صنغي الإسلامية نموذجًا (869-1000هـ/1464 - 1591م)، قراءات إفريقية للنشر، لندن، 2022.

2- الحرب والمجتمع في السودان الغربي (726 - 1000هـ/1325 - 1591م)، قراءات إفريقية للنشر، لندن، 2022.

ثانياً - البحوث:

1- الحرب والذهنية في مجتمع السودان الغربي إبان القرنين 9 - 10هـ/15 - 16م، مجلة الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، العدد 36، 2014.

2- الأثر العلمي لفقهاء الشافعية التزمنتيين في الفترة ما بين القرنين 7 - 9هـ/13 - 15م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية، كلية الآداب، جامعة بني سويف، العدد 2، أبريل 2017.

3- الزمني وذوو العاهة في بلاد الحجاز والشام والعراق خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد 79، مجلد 5، يوليه 2019.

4- الحرب والبنية الاجتماعية في السودان الغربي (726 - 1000هـ/1325 - 1591م، حولية سيمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد 7، 2019.

5- الصلات التجارية لمدينة جاو من خلال تقارير الحفائر الآثارية: دراسة للفترة من القرن 4 - 6هـ/10 - 12م، حولية كلية الآداب، جامعة بني سويف، المجلد 9، ج2، 2020.

6- جوانب من الأنشطة الحرفية لمتصوفة المغرب الأقصى في مصر خلال القرنين 6 - 7هـ/12 - 13م، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، الإصدار رقم 121، شهر أبريل 2020.

7- الأسطورة والتاريخ في السودان الغربي (628 - 1000هـ/ 1230 - 1591م)، مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، العدد 33، أكتوبر 1441هـ/2020م.

8- دور الرقيق خلال رحلات الحج الملكية في السودان الغربي عصر مملكتي مَالِي وصُنْغِي، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية، العدد 9، أكتوبر 2020.

9- الدراسات التاريخية الإفريقية في كلية الدراسات الإفريقية العليا جامعة القاهرة: قراءة وصفية تحليلية للرسائل العلمية بقسم التاريخ، مجلة قراءات إفريقية، العدد 50، أكتوبر 2021.

10- تاريخ جزر القمر وحضارتها خلال القرون الستة الأولى للهجرة، مجلة التاريخ والمستقبل، العدد 36، يناير 2022.

المحتوى

الملخص

تعرض هذه الدراسة لإحدى الممالك الإسلامية التي نشأت في الجهة الشرقية من منطقة الصحراء الكبرى الفاصلة بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي، ألا وهي مملكة تادمكة التي حكمها بربر صنهاجة من بني تانماك. وتمتد الفترة الزمنية للدراسة من منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن السادس للهجرة. وتعتمد الدراسة على نتائج الحفائر الآثارية والنقوش الجنائزية المدونة على شواهد القبور، وبعض النقوش غير الجنائزية المدونة على الصخور، بالإضافة إلى عدد من المصادر الأصلية المتنوعة التي عاصرت فترة الدراسة، لجغرافيين ورحالة ومؤرخين، فضلاً عن كتب الطبقات والتراجم المالكية والإباضية. وتتبع الدراسة منهج البحث التاريخي بأدواته المختلفة من السرد والرصد والتحليل والنقد والتعليل، مع استخدام التقسيم الموضوعي ومراعاة الترتيب الزمني للأحداث. والإفادة من العلوم المساعدة لدراسة التاريخ لا سيما علم الآثار. وتسعى الدراسة للإجابة عن عدد من التساؤلات المهمة، وهي: متى انتشر الإسلام في تادمكة؟ وهل كانت مدينة أم مملكة؟ وما أبرز ملامح الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تادمكة؟ وأخيراً يبرز تساؤل مهم هو .. ماهية العوامل والأسباب التي أدت لتراجع تادمكة واختفاء ذكرها من المصادر؟

الكلمات الدالة: مملكة تادمكة، السودان الغربي، التجارة عبر الصحراء، الحفائر الآثارية وشواهد القبور بإفريقيا جنوب الصحراء.

مقدمة

أسهمت ممالك الصحراء الكبرى وبلاد السودان الغربي –الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً حتى بحيرة تشاد شرقاً– خلال العصر الإسلامي بدور حضاري متميز على مختلف المستويات؛ الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية، وعلى الرغم من ذلك ظلت تلك الأدوار مهمشة أو غير مكتملة نتيجة غياب المادة المصدرية الخاصة بتلك الممالك في المدونات التاريخية التي طغى فيها الجانب السردي لوقائع التاريخ السياسي على حساب المُنجزات الحضارية.

وتعد مملكة تادْمَكَّة أو (السوق) واحدة من تلك الممالك التي لم تحظ بالاهتمام الذي يتناسب مع دورها المتميز الذي أسهمت به في محيطها، إذ مثلت واحدة من أهم المراكز الحضارية في قلب الصحراء الكبرى.

ويرجع عدم الاهتمام بكتابة تاريخ تلك المملكة إلى ندرة الإشارات الواردة بشأنها، سواء في المصادر التاريخية أم في المصادر الجغرافية وكتب الرحلات، فما أوردته تلك المصادر لا يتعدى بضع فقرات لا تسهم في تعرف جوانب الدور المهم لتلك المملكة خلال العصر الإسلامي، وهي إشارات تطرح الكثير من التساؤلات وتضفي الكثير من الغموض حول تاريخ تادمكة وحضارتها؛ وتلك مسألة دفعت الباحث للالتجاء إلى مصادر أخرى لا تنتمي للحقل التاريخي؛ مثل كتب الطبقات، لا سيما طبقات أعلام المذهبين الإباضي والمالكي، وكتب النوازل الفقهية، ونتائج الحفائر الآثارية، فضلاً عن الاستعانة بما قدمته النقوش المكتشفة على شواهد قبور وادي السوق في موقع تادمكة من معلومات تاريخية مهمة، والاعتماد على بعض النقوش الأخرى غير الجنائزية التي اكتشفت أيضًا في الموقع المذكور.

امتازت تادمكة بوقوعها في قلب الصحراء الكبرى، بالقرب من ملتقى طرق التجارة عبر هذه الصحراء التي ربطت بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان

الغربي والأوسط، إذ ارتبطت بالبلدان الإسلامية عبر ثلاثة طرق، الأول ربطها بالقيروان عبر وارجلان شمالاً، والثاني ربطها من الشرق بمدينة غدامس، ومنها إلى مصر، والطريق الثالث يقع إلى الجنوب منها، وربطها بمدينة جاو إحدى المدن التجارية المهمة ببلاد السودان الغربي، ثم يمتد هذا الطريق نحو مملكة غانة المشهورة بمعدن الذهب.

نتيجة لهذه الصلات غدت تادمكة من أهم الممالك والمراكز الحضارية عبر الصحراء، إذ أعان موقعها المتميز غربي إقليم الآير (بالنيجر حاليًا)، وشرقي ولاتة (في موريتانيا حاليًا)، وجنوبي بلاد الهقار (بالجزائر الحالية)، وشمالي بلاد السودان الغربي، في الإسهام بدور مؤثر في الأنشطة الاقتصادية لا سيما النشاط التجاري عبر الصحراء، وقد أسهم هذا الأمر في توافد العديد من الهجرات على تادمكة، وأبرز تلك الهجرات أتت من بلاد المغرب الإسلامي، بأقسامه الثلاثة: الأدنى، والأوسط، والأقصى، وأغلبها كانت لقبائل بربر صنهاجة، وزناتة؛ ولهذا عُدت مملكة تادمكة قاعدة للملثمين في الصحراء الكبرى.

أسهمت تلك الهجرات بدور مهم في النشاط الاقتصادي، فضلاً عما أسهمت به في نشر الإسلام في تادمكة وتوابعها، فأصبحت ذائعة الصيت في المجال الثقافي، وأضحت قبلة ثقافية قصدها العلماء من بلاد المغرب الإسلامي، واستقروا بها ونشروا العلم في ربوعها؛ فارتادها طلاب العلم في تلك الجهات. ونتيجة هذه الريادة الثقافية ما زال الكثيرون من أبناء هذه المملكة –على الرغم من اندثارها– المقيمين بدولة مالي حاليًا، يفخرون بانتسابهم لها، لا سيما قبائل كل السوق أي: «أهل السوق»، ونجد أكثرهم ينسب نفسه إلى تلك المملكة، فيقول: السوقي، أو التادمكي، فخرًا بتاريخها العلمي والثقافي التليد.

في ضوء ما سبق ترصد هذه الدراسة الدور الحضاري لمملكة تادمكة، وتفاعلها مع العالم الإسلامي، اعتمادًا على الشهادات المصدرية: الجغرافية

والتاريخية، بالإضافة إلى ما قدمته كتب الرحلات. كما تعتمد الدراسة بشكل رئيس على نتائج الحفائر الآثارية التي أجريت في موقع تادمكة، وهي نتائج تسهم في تقديم إضافات جديدة ومهمة حول الإسهامات الحضارية لتادمكة. وبالإضافة لما سبق تعتمد الدراسة على النقوش والكتابات المدونة على شواهد القبور والنقوش الصخرية غير الجنائزية المكتشفة في موقع تادمكة/السوق.

أما عن **أسباب اختيار الفترة الزمنية للدراسة** والممتدة من منتصف القرن الثالث وحتى نهاية القرن السادس للهجرة/ منتصف القرن التاسع حتى نهاية القرن الثاني عشر للميلاد؛ فترجع إلى أن بداية ذكر تادمكة في المصادر على اختلاف أصنافها سواء كانت كتب طبقات أم مصادر جغرافية أم تاريخية تعود إلى منتصف القرن الثالث للهجرة وأنها عرفت ازدهارًا كبيرًا بفضل النشاط التجاري، ووصلت إلى قمة الازدهار والتطور العمراني خلال القرن الخامس للهجرة بشهادة البكري (المتوفى عام487هـ/1094م) الذي أكد التفوق العمراني والحضاري لتادمكة على حساب المدن التجارية المماثلة ببلاد السودان، والتي بدأت تحتل مكانة تادمكة منذ القرن السادس للهجرة فصاعدًا بدليل شهادة الإدريسي عن غانة خلال هذا القرن بأنها أصبحت أهم مملكة في السودان الغربي. ومنذ ذلك الوقت يبدأ التراجع الملحوظ لدور تادمكة لعوامل عدة سنرصدها في هذه الدراسة، وعلى الرغم من ذلك لم يغادر بعض التادمكيين موقعهم ودلت شواهد القبور على وجودهم في المدينة خلال القرن الثامن للهجرة، لكن المدينة كانت قد فقدت أهميتها ودورها فعليًا خلال ذلك القرن الذي عرفت فيه مملكة مالي أوج ازدهارها واتخذت من مدن تنبكت وجاو مراكز سياسية وحضارية؛ فتراجع الدور الاقتصادي لتادمكة، وبدأت القبائل الصنهاجية تهجرها نحو تلك المدن التجارية المشهورة، وقد واكب هذا أيضًا بعض التغيرات المناخية مثل الجفاف، واندثار بعض الموارد الطبيعية، مما أثر سلبًا على الاستقرار السكاني بها. ولهذا تتوقف الدراسة عند نهاية القرن السادس للهجرة الذي شهد تراجع دور تادمكة.

الدراسات السابقة:

هناك بحث للأستاذ الدكتور إبراهيم بن عطية الله السلمي، بعنوان: «**مدينة تادمكة في العصر الإسلامي: من القرن الثاني الهجري إلى القرن الثامن الهجري/ القرن الثامن الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي**»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 66، 2016. يبلغ عدد صفحات هذا البحث 36 صفحة، منها 17 صفحة فقط متن البحث من المقدمة إلى الخاتمة.

وقد دفعني لإعداد هذه الدراسة وجود عدد من الاستنتاجات غير السليمة التي انتهى إليها البحث المذكور، منها على سبيل المثال تبعية تادمكة للحدود السياسية والجغرافية لممالك السودان الغربي، وتبعيتها أيضًا لبعض دول المغرب الإسلامي لا سيما دولة الأدارسة، ودولة بني مدرار (140 – 366هـ/ 757 – 976م)، والدولة الرستمية (160 – 296هـ/ 777 – 907م)، بالإضافة إلى ما ورد بهذا البحث عن تبعية تادمكة لممالك السودان الغربي: غانة، ومالي، وصنغي. هذا بالإضافة إلى الافتراض بتحول تادمكة من المذهب السُّنّي إلى المذهب الإباضي، ثم عودتهم إلى المذهب السني المالكي مرة أخرى نتيجة لغزو مملكة غانة لهم بمساعدة المرابطين. وتلك الاستنتاجات سيتم تفنيدها ومناقشتها في هذه الدراسة، لا سيما أن المصادر لم تقدم أي دليل على صحتها.

ومن حيث مصادر البحث، فقد اعتمد على بحثين آثاريين فقط، وتضمن عددًا من الصور لبعض المكتشفات الآثارية في موقع تادمكة/السوق، أوردها الباحث في الملاحق دون تحليلها وتوظيفها في متن البحث. في حين أن الدراسة التي نحن بصددها اعتمدت على أربعة عشر بحثًا تضمنت نتائج الحفائر في موقع تادمكة/السوق؛ مع الأخذ في الاعتبار أن أهمية الموضوع تكمن أساسًا فيما قدمته نتائج الحفائر الآثارية من معطيات مهمة حول تادمكة لم تفصح عنها المصادر الجغرافية والتاريخية وكتب الرحلات.

أيضاً لم يعتمد ذلك البحث على شواهد القبور والنقوش الصخرية غير الجنائزية، وهي شواهد بالغة الأهمية وركن أصيل لابد أن يستند إليه أي بحث تاريخي عن تادمكة، وقد أفدنا من هذه الشواهد الآثارية المهمة في دراستنا هذه، من خلال دراسات البروفيسور الفرنسي باولو فرناندو دي مورايس فارياس Farias, Paulo Fernando de Moraes الذي صور تلك الشواهد من موقع السوق وقام بنشرها في عدد من الدراسات.

وفضلاً عما سبق لم يعتمد البحث أيضًا على كتب الطبقات والتراجم سواء المالكية أم الإباضية رغم أهميتها البالغة في رصد صيرورة انتشار الإسلام وأوجه النشاط التجاري في تادمكة. وقد انفردت هذه المصادر بمعطيات مهمة جدًا عن مملكة تادمكة خلال فترة مبكرة من تاريخها وهي فترة القرنين الثالث والرابع للهجرة، قبل أن يبدأ ذكر تادمكة عند ابن حوقل خلال النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، وهو المصدر الوحيد بين المصادر الجغرافية والتاريخية الذي ذكرها خلال القرن الرابع.

في ضوء ذلك فسوف تعتمد هذه الدراسة على مصادر جديدة ذات معطيات مهمة حول تاريخ مملكة تادمكة وحضارتها، بالإضافة إلى إعادة النظر في بعض الاستنتاجات.

أهم مصادر الدراسة:

بالنسبة لأبرز **المصادر والمراجع التي اعتمد عليها هذا البحث**، فيأتي في مقدمتها **كتب الطبقات والتراجم**، لا سيما طبقات وتراجم المالكية، وكتب الطبقات الإباضية، فبالنسبة لكتب الطبقات والتراجم المالكية، فأهمها كتاب **القاضي عياض** (أبو الفضل عياض بن موسى السبتي اليحصبي، **المتوفى عام 544هـ/1149م**): **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**،

تحقيق عبد القادر الصحراوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الثانية، 1983. بالإضافة إلى كتاب ابن فرحون (**عبد الله بن محمد بن فرحون المالكي، المتوفى عام 769هـ/1369م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، حققه محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة،** د.ت. وقد انفرد هذان المصدران بخبر مهم جدًا عن جماعة من أهل تادمكة تتلمذوا على أيدي الفقيه المالكي ابن المواز (المتوفى عام 269هـ/882م)؛ فالخبر يتعلق بمعرفة أهل تادمكة بالمذهب المالكي وأعلامه منذ القرن الثالث للهجرة.

وأهم كتب الطبقات والتراجم الإباضية التي اعتمدت عليها هذه الدراسة، كتاب **أبو الربيع الوسياني (كان حيًا عام 557هـ/1161م): سير الوسياني، حققه عمر بن لقمان بو عصبانة، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2009. وطبقات الدرجيني (المتوفى حوالي 670هـ/1271م): طبقات المشائخ بالمغرب، حققه إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، الجزائر، 1974. وكتاب الشماخي (بدر الدين أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، ت 865هـ/ 1460م): السير الإباضية، المغرب، 1975.**

إن قيمة المصادر الإباضية تتجاوز التاريخ السياسي والمذهبي؛ إذ تساعد مادتها في تعرّف جوانب مهمة من التاريخ المسكوت عنه، وهو التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والذهني للقبائل والبوادي والمدن التي لم يرد ذكرها إلا في إشارات عابرة في المصادر الجغرافية والتاريخية، لا سيما بالنسبة لتاريخ مملكة أسسها الإباضية كمملكة تادمكة. وتكمن أهمية المصادر السابقة فيما تضمنته من معلومات مهمة ترجع للفترة الممتدة من القرن الثالث حتى القرن الخامس للهجرة حول مملكة تادمكة والطرق المؤدية إليها، وأبرز تجار الإباضية وأنواع السلع التي تاجروا فيها، وأبرز علماء الإباضية الذين ارتحلوا

إليها واستقروا بها، وغير ذلك من المعطيات المهمة التي لم ترد في المصادر الأخرى.

كما أفادت هذه الدراسة من كتب النوازل الفقهية، لا سيما كتاب **الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد، المتوفى عام 914هـ/ 1509م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981**. فقد أفادنا هذا المصدر المهم في تبيان أهمية تادمكة في النشاط التجاري عبر الصحراء خلال القرن الرابع للهجرة، من خلال إحدى النوازل التي أفادت بوجود أحد التجار السُنة من المغرب الأدنى في تادمكة خلال القرن المذكور.

وقدمت كتب **الجغرافيا والرحلات** إضافات مهمة بما تضمنته من معلومات -وإن كانت نادرة جدًا- عن مملكة تادمكة، وأهم كتب الجغرافيا والرحلات التي أفادت هذه الدراسة؛ كتاب **ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، المتوفى عام 367هـ/977م): كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992**. فهو مصدر موثوق به، وثق أخباره بالرحلة والمشاهدة، وهو أول جغرافي يتحدث عن تادمكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة؛ إذ ألف كتابه حوالي عام 363 - 365هـ/973 - 975م. وتحدث عن سادة تادمكة من قبائل بني تانماك، وأثبت ابن حوقل قدم إسلام أولئك الحكام ومعرفتهم بالفقه الإسلامي.

وخلال القرن الخامس للهجرة يُعد كتاب **البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري، المتوفى عام 487هـ/1094م): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.** من أهم المصادر الجغرافية التي اعتمد عليها هذا البحث؛ إذ تكمن أهمية كتاب

المغرب في أنه استقى معلوماته من بعض الأندلسيين، لا سيما الكاتب محمد بن يوسف الوراق (المتوفى عام364هـ/974م) الذي ولد في الأندلس وعاش بها، واستقر فترة بإفريقية عرف خلالها معلومات مهمة عن بلاد الصحراء وبلاد السودان من خلال صلته ببعض الإباضية. كما استمد معلوماته على الطريق الواصل بين غانة وتادمكة.

تضمن كتاب المغرب معلومات مهمة حول الأهمية التي حازتها مملكة تادمكة على الصعيد التجاري بفضل موقعها المتميز، الذي انعكس على النشاط التجاري لأهلها، كما حدد المسافات بينها وبين المحطات والمدن التجارية في الشمال والجنوب والغرب منها، كما لم يفت البكري الحديث عن بعض العادات والتقاليد وبعض السلبيات الاجتماعية.

ومن أهم المصادر الجغرافية خلال القرن السادس للهجرة **كتاب الجغرافية للزهري (محمد بن أبي بكر الزهري، كان حياً عام 532هـ/1136م)، حققه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت**، الذي تضمن معلومات مهمة عن مملكة تادمكة، وبعض الأسواق المجاورة لها، وأهم سلع التجارة، لكنه انفرد بخبر غريب، مفاده غزو مملكة غانة لتادمكة بمساعدة المرابطين في عام 476هـ/1083م، كما أنه تحدث عن انتشار الإسلام في تادمكة.

ومن المصادر الجغرافية خلال القرن السادس للهجرة أيضاً **كتاب الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي، المتوفى عام560هـ/1164م): وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشره وصححه هنري بيريس، الجزائر، 1957**. فقد أورد معلومات مهمة عن مملكة غانة والمدن المحيطة بها خلال القرن السادس للهجرة، وتأكد منه الغياب الواضح لدور تادمكة وأفول نجمها.

واعتمدت الدراسة على بعض المراجع المخطوطة التي أسهمت في سد الكثير من الفجوات، وأماطت اللثام عن كثير من التفاصيل الغائبة في المصادر، منها مخطوطة «**الجوهر الثمين في تاريخ صحراء الملثمين وما يجاورهم من السوادين**»، **للشيخ محمد العتيق بن الشيخ سعد الدين السوقي الجلالي، مخطوطة مرقونة بمكتبة محمد محمود ولد ودادي، نواكشوط، موريتانيا**. والشيخ محمد العتيق كما يظهر من نسبته، أحد أبناء المنطقة وينتمي لقبائل كل السوق، وتنبع أهمية هذه المخطوطة فيما تضمنته من معلومات مهمة عن تادمكة وانتشار الإسلام بها، وعن أبرز علمائها.

وبالإضافة إلى تلك المصادر المتنوعة، أفادت هذه الدراسة من عدد من الدراسات المتضمنة نتائج التنقيبات والحفائر الآثارية التي أجراها البروفيسور سام نيكسون Sam Nixon، وهو عالم آثار وباحث مشارك في وحدة سينسبري للأبحاث بجامعة إيست أنجليا بالمملكة المتحدة، والذي حصل على الدكتوراه من جامعة كوليدج في لندن عام 2008 وكانت رسالته للدكتوراه مشروع حفائر أجراه في موقع تادمكة/السوق، ولحسن حظي أنني التقيت الدكتور نيكسون في مؤتمر دولي بالمغرب عام 2016، كان موضوعه «التجارة العابرة للصحراء»، وقد أهداني نُسخًا من بحوثه القيمة المتعلقة بنتائج حفائر تادمكة والتي شكلت الأساس الذي انطلقت منه هذه الدراسة.

من أهم تلك الدراسات:

Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria: New Light on the Early Islamic West African Gold Trade: Coin Moulds from Tadmekka, Mali, Antiquity, Vol. 85, 2011.

وتقدم تلك الدراسة معلومات غاية في الأهمية حول القطع الذهبية والعملات، وقوالب صياغة الذهب في موقع السوق.

كما استفاد البحث أيضًا من دراسة أخرى لسام نيكسون وريرن ثايلو بعنوان:

Nixon, Sam, Rehren, Thilo: Refining Gold with Glass – an Early Islamic Technology at Tadmekka Mali, Journal of Archaeological Science, Vol. 49, 2014.

وتؤكد هذه الدراسة التقنيات العالية لصياغة الذهب، وتنقيته من الشوائب باستخدام الزجاج في تادمكة.

قدمت دراسة أخرى أيضاً معلومات غاية في الأهمية حول المكتشفات الآثارية في موقع تادمكة، وعنوان هذه الدراسة هو:

Nixon, Sam: Tadmekka Archéologie d'une Ville Caravanière des Premiers Temps du Commerce Transsaharien, Histoire et archéologie du Sahel ancien : nouveaux regards, nouveaux chantiers, Vol.4, 2013.

وهناك كتاب حرره سام نيكسون بعنوان:

Nixon, Sam (Editor): Essouk- Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017.

وهو كتاب غاية في الأهمية؛ إذ تضمن عددًا من البحوث المختلفة تتعلق بالمكتشفات المادية من ذهب ونحاس، وزجاج، وغيرها في موقع تادمكة، وكذا المباني، وأطلال المسجد المكتشف في الموقع ذاته.

كما أضاف بحث آخر معطيات مهمة حول بقايا النباتات والبذور التي اكتشفت في موقع الحفر، وهذا البحث عنوانه:

Nixon, Sam & Murray, Mary and Fuller, Dorian: Plant use at an Early Islamic Merchant Town in the West African Sahel: the Archaeobotany of Essouk-Tadmakka (Mali), Veget Hist Archaeobot, Vol.20, 2011.

بالإضافة إلى تلك الأبحاث الأركيولوجية المهمة، استفاد البحث أيضًا من عدد من شواهد القبور والنقوش التي صورها من موقع السوق البروفيسور باولو فرناندو دي مورايس فارياس Farias, Paulo Fernando de Moraes، وقد نشر فارياس هذه الشواهد والنقوش العربية والأمازيغية الجنائزية وغير الجنائزية في عدد من البحوث، أهمها:

- The Oldest Extant Writing of West Africa: Medieval Epigraphs from Issuk, Saney and Egef-n-Tawaqqast (Mali), Journal des Africanistes, Vol. 60, Num éro.2, (Année 1990).
- Arabic Medieval Inscriptions from the Republic of Mali: Epigraphy, Chronicles, and Songhay- Tuareg History, Published for the British Academy by Oxford University Press, New York, 2003.
- Arabic and Tifinagh Inscriptions, In Nixon, Sam (Editor): Essouk- Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017.
- Essouk Arabic Non-Funerary Inscriptions, New (Previously Unpublished) Series, In Nixon, Sam (Editor): Essouk-Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017.

استفاد هذا البحث كثيرًا من تلك الدراسات المهمة التي انفردت بالكثير من المعلومات التي ندر وجودها في المصادر الجغرافية والتاريخية؛ ولذا فإن هذا البحث مدين بالفضل لتلك الدراسات في استكشاف الكثير من معالم تاريخ مملكة تادمكة وحضارتها.

وسوف تندرج مناقشة موضوع هذه الدراسة تحت عدد من العناصر الرئيسة على النحو التالي:

أولاً– تادمكة: الموقع والتسمية.

ثانياً– انتشار الإسلام في تادمكة.

ثالثاً– الثقافة الإسلامية ومظاهرها في تادمكة.

رابعاً– الأحوال السياسية في مملكة تادمكة.

خامساً– الأنشطة الاقتصادية في مملكة تادمكة.

سادساً– ملامح الحياة الاجتماعية في مملكة تادمكة.

سابعاً– أسباب خراب مملكة تادمكة وأُفول نجمها.

خاتمة.

أولاً – تادمكة .. الموقع والتسمية:

تقع تادمكة على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى[1] وسط مرتفعات إقليم أضغاغ (أدرار إيفوغاس) أو طغاغ أو ضغاغ حسبما ورد في «خبر السوق»[2]، ولذا أطلق التادمكيون على أنفسهم اسم «كل أضغاغ»، وكل بمعنى: أهل، وأضغاغ تعني: الجبل بلغة قبائل الطوارق[3]، ولذا فإقليم أضغاغ ليس المقصود به إقليم كاغ أو جاو[4] الذي يقع إلى الجنوب من أضغاغ كما ظن البعض[5].

أما ما ذكره ابن سعيد (المتوفى عام 673هـ/1275م) بشأن وقوع تادمكة جنوبي جبل لونيا الغربي[6]؛ فهو غير صحيح أيضًا، فجبل لونيا أو (مرتفعات الآيير) كانت موقعًا لمدينة تكدا[7] التي تقع جنوب غرب تلك المرتفعات، بينما موقع تادمكة في مرتفعات الأدرار إيفوغاس وليس جبل لونيا[8]. وبهذا خلط بعض الباحثين بين موقع مدينة تكدا وموقع تادمكة[9].

وبهذا فإن تادمكة تقع في قلب الصحراء الكبرى إلى الجنوب من إقليم الهقار بالجزائر الحالية، وشمال بلاد السودان الغربي[10]، بل كانت مدخلاً لتلك البلاد،

ولكنها لم تكن ضمن حدودها السياسية[11]؛ وغرب إقليم آير، وشرق بلاد شنقيط (موريتانيا حاليًا). وتوجد أطلال تادمكة اليوم بولاية كيدال أقصى شمالي دولة مالي[12]، وامتازت بوقوعها بالقرب من ملتقى طرق التجارة عبر الصحراء[13]، الرابطة بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي والأوسط[14].

كما تنبع أهمية تادمكة من موقعها في شمال شرق منحنى نهر النيجر حيث توجد مدينة جاو، التي تبعد عنها بحوالي تسع مراحل. وقد ساعدها موقعها هذا في المساهمة بفاعلية في التجارة عبر الصحراء الكبرى؛ لوقوعها على نهاية الطريق الأوسط الذي يعبر الصحراء نحو بلاد المغرب الإسلامي، فأصبحت النهاية الرئيسة لهذا الطريق[15]. ومما زاد من أهميتها أيضًا وقوعها على الطريق الرابط بين بلاد السودان الغربي ومصر[16].

لم يعد لمملكة تادمكة أي وجود، باستثناء بعض الآثار والنقوش المكتشفة في موقع تادمكة/السوق. وتوجد خرائب تادمكة وأطلالها حاليًا على بعد 45 كيلو متراً شمال غرب كيدال Kidal ويطلق عليها «خرائب السوق». وقد كانت منطقة كيدال تتبع مدينة السوق في خلال القرون الأولى للهجرة، وانعكس الأمر فأصبحت أطلال تادمكة تقع حاليًا ضمن حدود ولاية كيدال بجمهورية مالي، إلى الشمال الغربي من مدينة كيدال على بعد سبعين كيلو متراً منها تقريباً[17]. ويذكر ريمون موني Mauny. R عالم الآثار الفرنسي الشهير أن هذه الأطلال تعود لأواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر للميلاد[18].

ولا نعرف تحديدًا تاريخ إنشاء هذه المدينة، ولكن موني أكد من خلال نتائج الحفائر أن مدينة السوق ارتبطت بصلات تجارية مع بلاد المغرب القديم، بدليل وجود عربات مرسومة على الصخور كانت تنطلق من فزان[19] وتمر بمدينة السوق باتجاه دلتا نهر النيجر[20]. كما تشير التقاليد الشفوية إلى وجود صلات تجارية بين تلك المدينة، وبلدة أبلسة Abalessa –بالجزائر حالياً– منذ القرن الرابع للميلاد[21].

أما من حيث التسمية؛ فقد كانت هذه المدينة تسمى «السوق» في أول نشأتها؛ لأنها كانت ملتقى القوافل التجارية من الشمال الأفريقي إلى أسواق الذهب والرقيق والعاج ببلاد السودان، وذلك قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ثم صار اسمها تادمكة بعد أن وطأتها أقدام التجار المسلمين[22]. ويرى البعض أن مسمى السوق ظل مرادفًا لاسم تادمكة، وهذه مسألة شائعة في تعدد أسماء المدن، ولكن المصادر اكتفت باستخدام مسمى تادمكة فقط[23].

وبالنسبة لسبب تسميتها «تادمكة»، فحسب تفسير البكري (المتوفى عام487هـ/1094م) أنها أشبه البلاد بمكة المكرمة من حيث الموقع؛ إذ تقع في وادٍ منبسط بين جبال وشعاب[24]. فقد كانت تادمكة تقع بين سلسلتين جبليتين: شرقية وغربية، يتوسطهما وادٍ عرضه كيلو متر واحد [25].

أما معنى الاسم؛ فيقول البكري إن «تاد» بلسان أهل المدينة من البربر تعني: هيئة؛ وعليه فإن تادمكة تعني: «على هيئة مكة»[26]. ونقل هذا التفسير عن البكري كل من صاحب الاستبصار (من أهل القرن السادس للهجرة)[27]، والحميري (المتوفى عام900هـ/1494م)[28].

لكن اختلف العبدري (توفي بعد سنة 700هـ/1300م) مع البكري فيما ذهب إليه بشأن تسمية تادمكة، وأكد أن كلمة تاد ليس معناها الهيئة كما ذكر البكري، ولا للهيئة اسم في لسان أهلها مطلقًا، وإنما معنى تاد: هذه، وهي من أسماء الإشارة عندهم. فمعنى تادمكة، هذه مكة أي «مشبهتها»[29].

ويرى أحد الباحثين المحدثين أن اسم تادمكة لا علاقة له بمدينة مكة المكرمة، وإنما هو مشتق من لقب حكام تادمكة «بنو تانماك» الصنهاجيين، ثم تحرف اسم تلك المدينة إلى تادماك بالدال، ومنه تادماكت، ثم أضيف لها هاء فصارت تادماكة، ثم حرفت إلى تادمكة لسهولة النطق، ثم ظن العامة أنها

لفظة مركبة من مقطعين: تاد، ومكة[30]. وهذا الرأي افتراضي لا يستند إلى أي دليل في المصادر.

لكن نرجح أن التشابه بين موقعي تادمكة، ومكة المكرمة هو سبب التسمية؛ إذ لم تكن تادمكة المملكة أو المدينة الوحيدة ببلاد السودان التي شبهها الجغرافيون المسلمون بمدينة مكة المكرمة، فقد وصفوا مدينة أودغست[31] أيضًا بأنها تشبه مكة، وقال عنها ابن حوقل (المتوفى عام 367هـ/977م): «وأودغشت مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة»[32]. أما الإدريسي (المتوفى عام560هـ/1164م)؛ فقد قال عنها: «وهي في ذاتها بين جبلين شبه مكة في الصفة»[33]. ونرى أن تشبيه أودغست وتادمكة بمكة المكرمة يرجع إلى موقعهما في وادٍ متسع بين جبلين كما هو حال مكة المكرمة.

يدعم هذا الرأي أيضًا اكتشاف نقش في موقع تادمكة/السوق يثبت التقارب بين تادمكة ومكة، إذ جاء النص حاملاً هذه العبارة «حقًا هنا مكة المكرمة»[34]. وعثر على نقش آخر مكتوب عليه «الشوق إلى بكة أو مكة»[35]. وتؤكد هذه النقوش الصلة المتخيلة في أذهان السكان بين تادمكة ومكة المكرمة على الرغم من البعد الجغرافي بينهما. وبوقوع تادمكة على ملتقى أهم مسالك التجار والحجاج المسلمين، بالإضافة لكونها مركزًا تجاريًا وسوقًا متميزًا، فإنها في نظر سكانها تؤدي دورًا في محيطها الصحراوي مشابهًا لدور مكة في منطقة الجزيرة العربية التي كانت سوقًا تجاريًا وفي الوقت نفسه مركزًا دينيًا مهمًا.

والراجح أيضاً أن سبب التسمية يرجع إلى ما دأب عليه أهل المغرب وبلاد السودان والصحراء من انتحال أسماء مشرقية لمدنهم تيمنًا بها[36].

وبعد أن عرضنا لجغرافية تادمكة وتسميتها، حريٌّ بنا أن نبحث عن انتشار الإسلام فيها.

ثانياً – انتشار الإسلام في تادمكة:

بدأ الإسلام يتسرب إلى الصحراء الكبرى[37] نتيجة للفتح الإسلامي لبلاد المغرب، لا سيما بعد الحملة الثانية لعقبة بن نافع الفهري (المتوفى عام 63هـ/682م) على بلاد المغرب الأقصى عام 62هـ/681م، التي اقترب فيها من حدود الصحراء الغربية، وهاجم قبائل مسوفة الصنهاجية، ثم عاد حاملاً معه عددًا من الأسرى، كما ترك عقبة بعض أصحابه في وادي نفيس لتعليم البربر الإسلام، منهم شاكر بن عبد الله الأزدي[38]، الذي حفظت المصادر اسمه فقط من بين عدة دعاة[39]. ثم تابع موسى بن نصير بعد ولايته على إفريقية والمغرب (85 – 95هـ/704 – 714م) جهود عقبة بن نافع، فغزا طَنْجَة[40]، وفتح دَرْعَة[41] وصحراء سِجِلْمَاسَّة[42] وأرسل ابنه إلى السُوس الأقصى[43] فأذعن البربر لسلطانه، وذلك عام 88هـ/707م[44]. ثم استؤنفت هذه الحملات في ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي ولي إفريقية والمغرب في الفترة من (116 – 120هـ/734 – 740م) لتحقق الوصول الأول لبلاد السودان، فقد أرسل ابن الحبحاب قائده حبيب بن أبي عبيدة الفهري عام 116هـ/734م، بحملة إلى جنوب المغرب الأقصى، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان، وظفر بكل من قابله[45].

من هنا يمكننا القول إن الإسلام أخذ طريقه للصحراء وبلاد السودان منذ القرن الأول للهجرة، ثم أخذ يتغلغل بين قبائل الصحراء خلال الربع الأول من القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، بدليل ما أوردته المصادر عن إسلام قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة التي كانت تسكن الصحراء وبلاد السودان، وكان ذلك في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (106–125هـ/724–743م)[46].

وأثمرت حملات فتح الصحراء في العقد الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي عن دفع حركة انتشار الإسلام إلى الأمام بفضل جهود الدعاة والتجار المسلمين في الدعوة إلى هذا الدين الحنيف بين السكان وحكامهم[47].

تلك مقدمة لابد منها للحديث عن انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي عامة، ومملكة تادمكة خاصة، لعدة اعتبارات، منها التأكيد على أن تقرير تاريخ محدد لانتشار الإسلام في مدن وممالك الصحراء أو بلاد السودان ومنها تادمكة يعد أمرًا في غاية الصعوبة ولا يخرج عن التكهنات والاجتهادات، فإسلام هذه البلاد لم يحدث على أثر حملات حربية أسلم بمقتضاها السكان، وإنما كان للنشاط التجاري والانسياب السلمي والمتتابع للتجار المسلمين نحو هذه البلاد، أثره في انتشار الإسلام تدريجياً، سواء حدث ذلك بإسلام الحكام أولاً قبل الرعية، أم العكس. كما يتضح من خلال ما تقدم أن الحملات الحربية كان غرضها استكشافيًا في الغالب، أو لردع بعض القبائل الصحراوية التي هددت طرق القوافل.

وفيما يتعلق بتادمكة، يمكن القول إن انتشار الإسلام فيها كان نتيجة للصلات التجارية بين هذه المملكة وبلاد المغرب الإسلامي لا سيما المغربين الأدنى والأوسط، ولذا لا نتفق مع الرأي القائل بانتشار الإسلام في تادمكة في القرن الأول الهجري على أثر حملة عقبة بن نافع الفهري(48)، فلا يوجد له سند في النصوص التاريخية، على الرغم من اقتراب عقبة من ثنية نهر النيجر التي تقع عندها تادمكة؛ إذ خرج عام 46هـ/666م من مغمداس(49) إلى جَرْمَة قاعدة إقليم فَزَّان(50)، ومن ثم إلى خَاوَارُ قاعدة إقليم كُوَّارُ(51) في جنوب الصحراء الليبية، لكن عقبة لم يتجاوز مدينة خاوار التي تبعد فقط عن حوض نهر النيجر أربع عشرة مرحلة، بسبب عدم معرفة الدليل لأكثر مما وصل إليه(52).

اتخذ البعض من تحركات عقبة بالقرب من منحنى نهر النيجر في عهد الخليفة معاوية بن أبي سُفيان (41–60هـ/661–680م) دليلاً على انتشار الإسلام في تادمكة، وحددوا عام 61هـ/680م تاريخًا لوصول الإسلام إليها، بل يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن جماعة من الصحابة والتابعين الذين رافقوا

عقبة انطلقوا إلى بلاد السودان حتى وصلوا نهر النيجر، واستقروا بتادمكة، وأن قبورهم موجودة هناك. وقد وردت هذه الرواية عند صاحب «خبر السوق»[53]، وبعض المؤرخين المحدثين من أبناء المنطقة[54].

لكن هذه الرواية غير صحيحة لعدة اعتبارات، أهمها عدم وجود أية أدلة تؤيد هذه الرواية في المصادر التي أرخت لأحداث الفتح العربي لبلاد المغرب، مع العلم بأن تلك المصادر أوردت كل المدن التي فتحها عقبة بن نافع، رضي الله عنه؛ فلماذا أغفلت حدثًا مهمًا يتعلق بفتح مملكة مهمة في قلب الصحراء الكبرى، وما واكب هذا من استقرار لبعض الصحابة الفاتحين للتمكين للدعوة الإسلامية؟!

كما أن الرواية تحوي مغالطات تاريخية فادحة، منها أن مدينة السوق كانت وثنية يحكمها كُسَيلة بن لَمْزم الأَوْرِبِي[55] قبل فتح المسلمين لها، بالإضافة إلى أن المشهور عن حملة عقبة بن نافع أنها كانت في عام 62هـ/681م، وهي المعروفة بالحملة الثانية، ولم تكن عام 61هـ/680م، فهذا العام الأخير كان عقبة معزولاً، وأعيدت ولايته مرة ثانية عام 62هـ، ولكن ليس في عهد معاوية، وإنما في عهد ابنه يزيد (60-64هـ/680-683م)[56]. كما أن ما جاء عند المؤلف من أخبار تتعلق بحياة عقبة بن نافع وكيفية قتل كسيلة، يُخالف ما جاء في المصادر المتداولة؛ إذ إن المشهور أن عقبة بن نافع استشهد في معركة تهودة في بسكرة شمال شرقي الجزائر بعد معركة خاسرة أمام كسيلة سنة 63هـ/682م ويوجد ضريحه في ذلك الإقليم. وقد قتل كسيلة بعد ذلك في معركة مع زهير بن قيس البلوي (والي إفريقية 69-73هـ/672-688م)[57] خليفة عقبة في موضع يسمى مَمْس غرب القيروان حوالي عام 69هـ/688م[58].

أما ما أوردته الرواية حول استقرار الصحابة في السوق، وأن قبورهم فيها، فيجانب الواقع أيضاً؛ فجميع الصحابة الذين دخلوا أرض المغرب مضبوطون

بأسمائهم ومقابرهم ولم يمت منهم واحد في السوق[59]. ودليل ذلك أيضًا أن الرواية تشير إلى أن أبا محذورة[60] (المتوفى عام 59هـ/678م، وقيل 79هـ/698م) مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ممن دُفن في أرض السوق، علمًا بأن المصادر تؤكد أن أبا محذورة لم يهاجر، ولم يزل مقيمًا بمكة حتى توفي فيها[61].

كما أن كسيلة لم يكن من أهل السوق كما تزعم الرواية، بل هو من قبيلة أوربة من البرانس، وكان يستوطن بلاد المغرب الأوسط، وأسلم حين اتجه أبو المهاجر دينار إلى تلك البلاد، وأنصاره كانوا هناك أيضًا بدليل أنه كمن لعقبة بن نافع في تهودة إحدى مناطق المغرب الأوسط[62]. وبالنظر في هذه الرواية يظهر أنها تتعلق بمدينة القيروان، وليس تادمكة[63].

والراجح أن الآراء المتعلقة بدخول الإسلام إلى تادمكة على أثر حملة عقبة بن نافع على جنوبي المغرب ووصوله للسوس الأقصى عام 62هـ/681م، والتي ساقها أبناء تادمكة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمسألة ادعاء الأنساب العربية التي درج عليها الكثير من قبائل السودان الغربي، فالواضح من خلال طبيعة الحملة وخط سيرها، ثم نتائجها أنها كانت حملة استكشافية فقط، ولم يكن هدفها فتح جنوب المغرب والصحراء وأطراف بلاد السودان وتحويل أهلها للإسلام.

وبالنظر في المصادر الإسلامية نجد أن الإسلام بدأ ينتشر في تادمكة وكثير من ممالك بلاد السودان ومدنها نتيجة وجود تجار مسلمين استقروا بها خلال القرون الأولى للهجرة؛ إذ نتج عن الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب تدفق الإسلام إلى الصحراء الغربية[64]، خاصة بين قبائل صنهاجة الصحراء[65] التي تلاحق انتشار الإسلام بينها خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي. وما كاد القرن الثالث الهجري يطل حتى تمكن الإسلام من نفوسهم؛ وتلك نتيجة طبيعية؛ إذ يمثل صنهاجة الصحراء امتدادًا عرقيًا ولغويًا (وعقائديًا قبل القرن

الثاني الهجري) لبربر بلاد المغرب[66]. وبعد انتهاء الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب استمر التواصل بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، وتمكن التجار المسلمون من التوغل في مدن المغرب المختلفة إلى المراكز التجارية السودانية، وساعد هذا التوغل على تنشيط التجارة عبر الصحراء والاختلاط بسكان السودان والتأثير عليهم؛ مما أسهم في انتشار الإسلام بينهم[67].

يدعم القول بقدم انتشار الإسلام في تادمكة بعض الإشارات التي وردت في النوازل الفقهية، من ذلك ما ورد في ترجمة سكن بن سعيد الصائغ من أهل القيروان (كان معاصرًا للبهلول بن راشد المتوفى عام183هـ/799م)، وكان يصنع السلاسل النحاسية، ويقوم بطلائها بماء الذهب لتباع في بلاد السودان[68]، والمعروف أن الطريق الذي كان يقطعه أهل القيروان نحو بلاد السودان كان يمر بتادمكة، من ثم نرجح أن التجار المالكية من أهل القيروان قصدوا تادمكة للتجارة خلال القرن الثاني للهجرة لا سيما مع ازدهار النشاط التجاري بها، وقربها للقيروان.

وخلال القرن نفسه تؤكد المصادر الصلات التجارية القائمة بين الدولة الرستمية الإباضية في تاهرت[69] (160 – 296هـ/777 – 907م)، وبلاد السودان، لا سيما في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (حكم:171 – 208هـ/787 – 823م)؛ إذ كانت القوافل التجارية تنطلق من واحات فزان، ووارجلان[70]، وغدامس[71] وجَادُوا[72] بجبل نَفُوسَّة[73]، وغيرها من المدن[74]، تحمل معها مختلف السلع[75]، وبذلك ساهمت تلك الدولة أيضاً في التجارة عبر الصحراء، بفضل تشجيع حكامها، وإذا كانت صلات تاهرت كما يتضح من المصادر الإباضية مع مدينة جاو[76]، فإن تادمكة كانت محطة رئيسة تنزل بها القوافل الإباضية قبل انطلاقها نحو بلاد السودان، إذ كانت آخر محطة صحراوية قبل الدخول إلى جاو التي قصدها الرستميون.

كما شجع الأغالبة (184 – 296هـ/800 – 908م) رعاياهم في مدن إفريقية على المشاركة في التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها[77]، وغالبًا ما جمع التجار بين الدور التجاري والدور الدعوي[78]، وبما أن هؤلاء التجار كانوا أصحاب مذاهب شتى فإنهم استثمروا اتصالهم بأهالي السودان لنشر الإسلام على أساس مذاهبهم المختلفة[79].

وإبان القرنين الثالث والرابع للهجرة يبدأ ذكر تادمكة في المصادر بصورة مباشرة، فبالرجوع لكتب طبقات المالكية نجد إشارة مهمة تتحدث عن ارتحال بعض التادمكيين للمشرق، وأنهم تفقهوا على ابن المواز[80] (المتوفى عام 269هـ/882م)، وهو أحد أشهر فقهاء المالكية بمصر[81].

وخلال النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة أيضاً تمدنا المصادر بإشارات مهمة حول عدد من التجار الإباضية الذين ارتحلوا إلى تادمكة واستقر بعضهم بها فترات ليست بالقصيرة بدافع متابعة نشاطهم التجاري، وأقدم إشارة في هذا الخصوص تتعلق بتاجر من بلدة تَقْيُوس[82] ببلاد الجريد[83] يدعى كيداد –وهو والد أبي يزيد بن كيداد[84] الذي ثار على الفاطميين عام 333هـ/944م– كان يسافر لتادمكة وبلاد السودان للتجارة، فاشترى أمة من تادمكة، وأنجبت له ابنه أبا يزيد. والمعروف أن أبا يزيد ولد عام 270هـ/883م[85]. وبهذا نستدل على وجود تجار مسلمين بتادمكة في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد[86].

كما تدلنا بعض الإشارات النوازلية على وجود تجار مالكية من أهل المغرب الأدنى في تادمكة خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، فقد أورد الونشريسي (المتوفى عام914هـ/1509م) نازلة أفتى فيها فقيه القيروان أبو الحسن القابسي (324 – 403هـ/935 – 1012م)، تتعلق بتاجر من أهل إفريقية كان يذهب إلى تادمكة وغيرها من بلاد السودان بغرض التجارة، وأنه استقر هنالك إحدى عشرة سنة حتى وفاته(87).

تؤكد هذه الإشارات التعايش السلمي بين السُّنة والإباضية في تادمكة، وأن النشاط التجاري كان مشروعًا أمام جميع التجار المسلمين، ولذا فلا نتفق مع الرأي القائل بأن أهل تادمكة تحولوا من المذهب السني المالكي إلى المذهب الإباضي نتيجة خضوعهم سياسيًأ لحكم دولة بني مدرار (140 – 366هـ/ 757 – 976م)، وللدولة الرستمية (160 – 296هـ/ 777 – 907م)، فلا يوجد أدلة في المصادر على هذا الخضوع المزعوم(88).

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: أكان أهل تادمكة على المذهب المالكي السُني أم كانوا على المذهب الإباضي؟

جزم كثير من الباحثين بأن المذهب الإباضي كان المذهب الرسمي السائد في مملكة تادمكة(89)، بل ذهب أحدهم إلى تحول التادمكيين من المذهب المالكي إلى الإباضي، ودفعه هذا الاستنتاج إلى بناء تصور سلبي عن مجتمع تادمكة وأنه خرج عن صحيح الدين بعد تحوله للإباضية وسادت فيه الفاحشة، ولم ينكرها أهلها؛ من ثم وصل إلى افتراض وجود غزو غاني لتادمكة بمساعدة المرابطين لحمل أهلها على الإسلام السُّني(90)، وهي مسألة سنناقشها لاحقاً.

لقد بنى القائلون بسيادة المذهب الإباضي في تادمكة استنتاجهم هذا على ما أوردته كتب الطبقات والتراجم الإباضية من أخبار تتعلق بسفر عدد من الإباضية للتجارة في تادمكة(91) على الرغم من أن هذه المصادر الإباضية نفسها لم تشر إلى قيام أولئك التجار بالدعوة لمذهبهم أو نشره بين أهالي تادمكة. وفضلاً عن هذا يستشف من النوازل الفقهية وجود بعض التجار السُّنة المالكية في تادمكة(92). ومن ثم فإن التجارة والمكاسب التجارية كانت هي الدافع الرئيس الذي قصد لأجله الإباضية بلاد الصحراء والسودان بوجه عام وليس تادمكة وحدها، بدليل ما أوردته المصادر من إشارات تتعلق بوجود صلات ودية بين الدولة الرستمية (160 – 296هـ/ 777 – 907م) الإباضية

في تاهرت ومدينة جاو التجارية المهمة[93]، وعلى الرغم من ذلك لم يؤد انتشار الإباضية في جاو إلى جعلها إباضية وإنما شهدت سيادة واضحة للمذهب المالكي بتأثير الدعاة والتجار المالكية المغاربة؛ إذ اشتهر عن التجار السنة الذين وفدوا على بلاد السودان الغربي من بلاد المغرب الإسلامي، اهتمامهم بنشر الإسلام على مذهب الإمام مالك، بينما لم يكن التجار الإباضية يشغلهم نشر المذهب الإباضي. ونتيجة لذلك ذاع المذهب المالكي وكان هو المذهب الرسمي السائد في كل مدن الصحراء وبلاد السودان الغربي.

وعلى هذا فإن المذهب المالكي هو المذهب الذي ساد في تادمكة؛ فالتجار المالكية عرفوا تادمكة وتاجروا في أسواقها مثلما عرفها التجار الإباضية، ولم تعرف التجارة تعصبًا مذهبيًا وإنما عرفت تعدد المذاهب، كما كانت تادمكة محاطة بمحيط مالكي، ويدعم هذا أيضًا ارتحال عدد من طلاب العلم التادمكيين للتتلمذ على يدي ابن المواز حوالي منتصف القرن الثالث للهجرة[94]، ويعني هذا أنه كان هناك تعليم أولي لمبادئ المذهب المالكي، ثم استدعى الأمر السفر للمشرق لاستكمال تعلم أصول فقه الإمام مالك من منابعه في بلاد المشرق الإسلامي.

على أي الأحوال، أسهم وجود التجار المسلمين مالكيين وإباضية في انتشار الإسلام في تادمكة، لا سيما مع استقرارهم لفترات ليست بالقصيرة كما يظهر من النازلة السابقة، لنصل إلى النتيجة المهمة التي أثبتها ابن حوقل خلال النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، إذ ألف كتابه حوالي عام 363 – 365هـ/ 973 – 975م بعد أن زار تادمكة بنفسه، وشهد بأن الإسلام هو دين جميع أهلها حكامًا ورعية على السواء[95].

وتأتي شواهد القبور في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، لتدلل على تنامي انتشار الإسلام في تادمكة؛ إذ اكتُشف عدد من شواهد القبور

والنقوش الكتابية في موقع وادي السوق تحمل نقوشًا بعضها باللغة العربية، والأخرى بلغة التيفيناغ[96] التي تستخدمها قبائل الطوارق[97]، ترجع لبدايات القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد، أقدم هذه النقوش نقش باللغة العربية، يرجع إلى عام 401هـ/1010م، كتبه محمدين بن الحسن، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[98]. وهناك نقش آخر باللغة العربية مدون على واجهة صخرية[99] مؤرخ بعام 404هـ/1013م[100]، كتبه شخص يدعى بابا بن نصرين[101]. وتدعم تلك الشواهد ما أوردته المصادر المدونة عن قدم انتشار الإسلام في تادمكة، وأن الإسلام –وفقًا لأقدم الشواهد– كان موجودًا قبل عام 401هـ/1010م.

لذا فالباحث لا يتفق مع نص الزهري (كان حيًا عام 532 هـ/1136م) الذي حدد تاريخ إسلام أهل تادمكة بعد سبع سنوات من إسلام أهل غانة[102] عام 469هـ/1076م؛ أي أن إسلام تادمكة – وفقًا للزهري – يرجع إلى عام 476هـ/1083م[103].

تلقف البعض نص الزهري وعدوه دليلاً قاطعًا على تأخر إسلام أهل تادمكة، ومنهم ليفيتسكي Lewick, Tadeusz الذي استند إلى نص الزهري، بل إنه اعتمد تاريخ 496هـ/1102م وليس 469هـ/1076م تاريخًا لإسلام أهل غانة؛ من ثم استنتج أن إسلام تادمكة حدث عام 503هـ/1109م[104]. ونرجح أن الهدف من هذا الوصول إلى نتيجة مفادها تأخر إسلام تادمكة حتى الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أو حتى مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، بالإضافة إلى التأكيد على أن إسلام غانة وتادمكة حدث نتيجة للغزو المرابطي، ومن ثم انتشار الإسلام بحد السيف لا بالإقناع والسلم، وهو ما يجانب الواقع تمامًا.

إن المتأمل لكتابات الزهري حول انتشار الإسلام في السودان الغربي وممالكه يجد عدة مغالطات؛ فالخبر الذي أورده عن تحول مدينة سُلي[105] للإسلام بعد إسلام أهل غانة؛ أي بعد عام 476هـ/1083م، غير منطقي وفقًا للمعطيات المصدرية؛ فالبكري ذكر أن أهل سُلي كانوا مسلمين بعد أن حملهم حاكم التكرور وارجابي بن رابيس المتوفى عام432هـ/1040م على الإسلام[106].

كما أن ما ذكره عن إسلام أهل غانة غير صحيح أيضًا؛ إذ يشير إلى أنهم ظلوا متمسكين بالكفر إلى عام 469هـ/1076م حينما خرج إليهم يحيى بن أبي بكر أمير مسوفة، وأسلموا في مدة لمتونة وحسن إسلامهم[107]. فالمعروف أن انتشار الإسلام في غانة أقدم بكثير من التاريخ المزعوم للزهري، فالبكري يؤكد في منتصف القرن الخامس للهجرة أن غانة «يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدًا، أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم»[108].

وأخيرًا ففيما يتعلق بتادمكة فإن الإسلام لم ينتشر بها بعد إسلام أهل غانة بسبع سنوات أي عام 476هـ/1083م، فانتشار الإسلام في تادمكة أقدم من هذا التاريخ، يشهد على ذلك ما قدمناه من أدلة، بالإضافة إلى ما ذكره البكري الذي أكد أن أهلها بربر مسلمون[109].

هكذا يمكن القول إن الإسلام تسرب إلى تادمكة سلميًا منذ بدايات القرن الثاني للهجرة، بفضل تأثير التجار والدعاة المسلمين من السُّنة والإباضية على السواء، وتدعّم انتشار الإسلام في تادمكة خلال الفترة من القرن الثالث حتى القرن الخامس للهجرة.

ثالثًا- الثقافة الإسلامية ومظاهرها في تادمكة:

تعد تادمكة واحدة من أهم المدن التي اضطلعت بدور مهم ليس على الصعيد التجاري فقط، وإنما كمركز ثقافي إسلامي أيضًا، نتيجة تجمع حجاج بلاد السودان بها واستقرارهم هناك لبعض الوقت قبل انطلاقهم للأراضي المقدسة، كما أنها كانت محطة ينزلون بها عند عودتهم، فكانت تخدم الحجاج[110] في ذهابهم وإيابهم[111]، نتيجة لموقعها على أطراف الصحراء، بل كانت الحد الجنوبي الشرقي لغرب الصحراء[112]؛ ومن ثم كانت آخر مقر سكني مستقر يمكن العثور فيه على الماء والمراعي قبل الرحلة الصحراوية الطويلة[113]. من هنا يتبين أن تادمكة لم تكن مجرد محطة تجارية تتوافر بها الأسواق والسلع، وأماكن الإقامة للتجار، وإنما كانت بمثابة مركز ديني ملائم يتجهز منه الحجاج لرحلتهم إلى الأراضي المقدسة.

لقد كانت تادمكة هي الحاضرة الأولى للملثمين، قبل أن تظهر تنبكت[114]، وغيرها من مدن الصحراء وبلاد السودان، بل إن تادمكة كانت مصدر الإشعاع العلمي لمدن تنبكت وجاو وغيرهما، فمدينة تنبكت نفسها أسست على أيدي طوارق مقشرن الذين هاجر بعضهم من تادمكة إلى تنبكت، ثم صار لعلماء الطوارق دور مهم في مدينة تنبكت بعد أن استقروا بها، وكانوا نواة للأسر العلمية الشهيرة التي سكنت تلك المدينة في عصر مملكة صنغي[115](869 – 1000هـ/1464 – 1591م)، كأسرة أقيت[116]. وصارت هذه الأسر تؤدي دورًا مهمًا في التدريس ونشر اللغة العربية وعلومها[117].

وتؤكد نتائج التنقيبات الآثارية الطابع الإسلامي القوي لمملكة تادمكة؛ فقد وجدت شواهد لآثار مصلى في الهواء الطلق[118]، وآثار لمسجد جامع[119] في موقع تادمكة/السوق[120]. وباستخدام الكربون المشع تبين أن هذا المسجد يرجع تاريخه للقرنين الخامس والسادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر

للميلاد[121]. وهذا يعني أن التادمكيين حافظوا على الصلوات في المساجد، بالإضافة إلى مواظبتهم على صلاة العيدين التي أدوها في الأماكن الواسعة في الخلاء. كما أن الحجاج والتجار كانوا يؤدون صلواتهم في تلك المساجد والساحات سواء قبل انطلاقهم من تادمكة بهدف الحج والتجارة، أو عند وصولهم إليها[122].

كما يتأكد تفاعل التادمكيين مع الإسلام وثقافته من خلال النصوص المدونة على المقابر الإسلامية الكثيرة التي دلت عليها شواهد القبور المكتشفة في موقع المدينة، بالإضافة إلى النقوش غير الجنائزية[123].

أقدم تلك النصوص جاء على نقش يرجع إلى بداية القرن الخامس الهجري، وتحديدًا عام 401هـ/1010م[124]، ونقش آخر مؤرخ بعام 404هـ/1013م[125]. وشاهد قبر توفي صاحبه عام 407 أو 409هـ/1017 أو 1019م[126]، وشاهد توفي صاحبه عام 424هـ/1032م[127] وآخر عام 428هـ/1036م[128]، وآخر عام 432هـ/1040م[129]، وشاهد لرجل توفي عام 435هـ/1043م[130]، وآخر توفي عام 443هـ/1051م[131]، وشاهد مؤرخ بعام 447 أو 449هـ/1055 أو 1057م[132]، وآخر عام 466هـ/1073م[133]، وشاهد قبر لسيدة توفيت عام 470هـ/1077م[134]، وأخرى توفيت عام 485هـ/1092م[135]، وأخرى توفيت عام 493هـ/1099م[136].

وتحمل تلك الشواهد والنقوش دلالات دينية تؤكد الطابع الإسلامي لمملكة تادمكة ومدى ارتباط أهلها بالإسلام وثقافته؛ إذ تحوي البسملة، والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبعض الآيات القرآنية التي تؤكد الإيمان بحقيقة الموت والبعث، كما تتضمن بعض شواهد القبور إعلان الشهادتين. ويلاحظ أيضًا على هذه الشواهد والنقوش اتباع التأريخ الهجري، بالإضافة إلى اندماج الثقافة العربية الإسلامية بالثقافة المحلية، وهذا يظهر بوضوح من

خلال الأسماء الواردة على هذه الشواهد، التي حمل بعضها أسماء مكونة من مقطعين، أحدهما عربي إسلامي، والآخر محلي، وكان هذا بتأثير من الثقافة العربية الإسلامية، واللغة العربية.

كما توجد عدة نقوش كتابية وشواهد قبور أخرى تحمل الدلالات الدينية نفسها خلال القرن السادس للهجرة، أحدها شاهد قبر لسيدة توفيت عام 504هـ/1110م[137]. وآخر لرجل توفي عام 507 أو 509هـ/1113 أو 1115م[138]، وشاهد قبر لسيدة توفيت عام 517هـ/1123م[139]. وشاهد آخر لرجل توفي عام 524هـ/1129م[140]، وآخر توفي عام 525هـ/1130م[141]، وشاهد آخر لسيدة توفيت خلال العام نفسه[142]، وشاهد قبر لرجل توفي سنة 527 أو 529هـ/1132 أو 1134م[143]. وآخر لرجل توفي عام 530هـ/1135م[144]. وهناك نقش مؤرخ بعام 547هـ/1152م[145]. وهناك أيضًا شاهد قبر توفي صاحبه عام 560هـ/1164م[146]، وآخر لرجل توفي عام 564هـ/1168م[147].

وفضلاً عما سبق ارتبطت ذهنية أهل تادمكة ارتباطًا قويًا بالثقافة الإسلامية التي احتلت مكانًا متميزًا في تلك الذهنية، وهو أمر أكدته بعض الروايات الشفوية رغم أسطوريتها وبُعدها عن الواقع، لكنها تعبر عن مدى ارتباط ذهنية التادمكيين بالأحداث الإسلامية المهمة وتعلقهم بها وتخيلهم وقوعها على أرضهم، من ذلك ما تقصه هذه الروايات حول ما أحدثه كسيلة بن لمزم من تدمير لمباني تادمكة قبل أن يواجهه الفاتح العربي المسلم عقبة بن نافع، ومن ذلك أيضًا ما تسوقه الروايات الشفوية لطوارق تادمكة من أن المدخل الشرقي لوادي السوق على الطريق المؤدي إلى كيدال في شمالي مالي أطلق عليه «ممر السيف»؛ لأن سيدنا علي بن أبي طالب افتتحه بسيفه، وكذلك افتتح برمحه الممر الضيق عبر المنحدرات الغربية لوادي السوق[148].

ويظهر من تلك الإشارات أنه على الرغم من عمق الثقافة العربية الإسلامية في نفوس أهل تادمكة وتشبعهم بها؛ فإنهم لم ينتجوا ثقافة خاصة بهم خلال تلك المرحلة المبكرة.

– العلوم وأبرز العلماء:

اهتم التادمكيون بالعلوم وتحصيلها، لا سيما العلوم الدينية، وفي مقدمتها علم الفقه؛ فعلى الرغم من كثرة وفود العلماء الإباضيين على تادمكة فإن مذهب أهل السُّنة كان له حضوره البارز، لا سيما المذهب المالكي، الذي كان له أتباعه هناك منذ وقتٍ مبكر، واهتموا بتحصيله، والاطلاع على أهم مؤلفاته من أمهات كتب الفقه المالكي، والجلوس للسماع بين أيدي أشهر علماء المذهب، وقد كلفهم هذا الأمر ارتحالهم للمشرق، فالقاضي عياض (المتوفى عام544هـ/1149م) يدلنا على جماعة من أهل تادمكة ارتحلوا إلى مصر خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد وقاموا برواية كتاب الوقوف، لابن المواز (المتوفى عام 269هـ/882م)[149]. ويستشف من هذه الإشارة أن هناك طلاب علم من تادمكة رحلوا للمشرق وأخذوا العلم على يدي ابن المواز، ويؤكد هذا وجود نظام تعليمي كان قائمًا في تادمكة وبعد الانتهاء من الدراسة فيه يتجه الطلاب إلى المشرق لاستكمال تعليمهم.

تطورت الدراسات الفقهية في تادمكة خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد؛ يشهد على هذا التطور والازدهار لهذا العلم ابن حوقل الذي أكد اهتمام الأسرة الحاكمة من بني تانماك بهذا العلم، بل إنهم اهتموا بتحصيل الفقه بأنفسهم، ونبغوا فيه، فكانوا «أهل فقه وسياسة»[150].

ونتيجة لهذا الاهتمام اشتهر عدد من علماء الفقه في تادمكة؛ إذ تؤكد شواهد القبور المكتشفة في موقع وادي السوق خلال القرن الخامس للهجرة وجود عدد من الفقهاء المسلمين الذين اشتغلوا بالفقه والفتيا، يستشف هذا من شاهد قبر

لأحد الفقهاء، وهو الفقيه علي بن محمد الفقيه الذي توفي عام 484هـ/1091م، ويظهر من لقب صاحب الشاهد أن أباه كان من فقهاء تادمكة أيضًا[151]. وتورد لنا شواهد القبور أسماء فقهاء آخرين عاشوا في تادمكة لم نستدل على تواريخ وفاتهم، منها شاهد قبر للفقيه محمد بن محمد بن عقيل بن أحماد، الذي مات وهو ابن أربع وثلاثين سنة[152]، وشاهد قبر آخر للفقيه الصالح محمد...[153].

وبخلاف علم الفقه اهتم التادمكيون أيضًا ببعض العلوم الأخرى؛ إذ يؤكد ابن حوقل شهرة حكام تادمكة من بني تانماك ونبوغهم في بعض العلوم كعلم **السير والتراجم**، أو **طبقات الرجال**، فكان فيهم «رياسة وعلم وفقه وسياسة إلى علم بالسير واضطلاع بالأثر والخبر»[154].

وهناك بعض التجار والعلماء الإباضية الذين سكنوا تادمكة خلال القرن الرابع للهجرة، واشتهروا بعلم التاريخ والسير[155].

أما **أبرز العلماء**؛ فهناك عدد من العلماء الإباضية الذين ارتحلوا لتادمكة، ويظهر من مصادر طبقات وتراجم الإباضية أن الغرض الأساس لهؤلاء العلماء هو التجارة[156]، نتيجة الأرباح الكبيرة التي كانوا يحققونها، ومنهم الفقيه أبو تملي الوسياني (كان حيًا عام 380هـ/990م)، وهو عالم يرجع نسبه لبني ويسين من أهل القصور في بلاد الجريد بتونس، كان فقيرًا في أول عمره، ثم أصبح ثريًا بعد أن سافر إلى تادمكة، وأسس بها تجارة[157].

ومن الإباضية الذين سافروا إلى تادمكة خلال القرن الرابع الهجري أيضًا، أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي (نسبة إلى مزاتة من نواحي طرابلس)[158]، وهو أحد أعلام مزاتة في القرن الرابع للهجرة. وقد سافر على فرسه[159] إلى تادمكة[160]. ويظهر من ترجمته أنه كان عالمًا في السير والتاريخ، إذ يقول عنه الدرجيني (المتوفى حوالي 670هـ/1271م) «ممن سلك مسالك الأخيار، وحافظ على إحياء السير والآثار، وكان ذا سعة في العلم والمال، لا يبخل بهما على سائل»[161].

أما علماء السُّنة؛ فتدلنا شواهد القبور المكتشفة في موقع وادي السوق على بعضهم، ومنهم الفقيه علي بن محمد الفقيه المتقدم ذكره المتوفى عام 484هـ/1091م[162]. ويظهر من لقب صاحب الشاهد السابق ولقب أبيه أنه انحدر من أسرة علمية اشتغلت بالفقه، وحمل أبناؤها لقب الفقيه.

وعلى الرغم من وجود عدد من العلماء والفقهاء فإننا لا نجد لهم مؤلفات، وسبب ذلك كما يرى الشيخ محمد العتيق، أن العادة في بلاد الصحراء جرت على عدم العناية بالتأليف، وإهمال التواريخ والسكوت عن نشر فضائل علمائهم وآثارهم وضبط أشياخ المرء وتلاميذه، لبعد الصحراء عن الممالك والحواضر[163].

رابعًا - الأحوال السياسية في مملكة تادمكة:

تعد تادمكة أبرز دليل على تمكن قبائل البربر من إيجاد سلطة سياسية مستقلة بالقرب من منحنى نهر النيجر[164]. وتأتي أول إشارة تتعلق بالوضع السياسي لتادمكة عند ابن حوقل، الذي انفرد بذكر الأخبار المتعلقة بحكامها خلال النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، وأنها مملكة يحكمها ملوك ينتمون إلى قبيلة بني تانماك، وهي فرع من بربر صنهاجة. فيذكر أن سيد ملوك تادمكة في وقته يدعى «فسهر بن ألفارة»، وإيناو بن سبنزاك، وهما من بني تانماك[165]، ولم يبين لنا ابن حوقل أكان الاثنان يتقاسمان حكم المملكة أم أن أحدهما كان نائبًا للآخر.

لا تسعفنا المصادر المتاحة بأي معلومات تفيد في تعرف شكل حكومة تادمكة، أو أركان النظام الإداري القائم فيها، فلا يوجد أي شيء من هذا القبيل باستثناء إشارة ابن حوقل لأسماء ملوكها، وللأسف لم نعثر على نقش ملكي أو شاهد قبر يحمل دلالات سياسية واضحة في موقع السوق، حتى إن الألقاب

السياسية المعروفة مثل (الملك) غابت أيضًا. ومع ذلك، فالنقوش تحمل ألقابًا أخرى مثل (الأمين، والأمير).

ففي موقع وادي السوق وتحديدًا في الجبانة الشمالية الشرقية تم العثور على شاهد قبر يحمل لقب الأمين[166]، هذا الشاهد لسيدة اسمها شمة أو شَمَ بنت الأمين لسمد بن مورد غ، التي توفيت عام 470هـ/1077م[167].

ويرجح أن هذا اللقب لم يأتِ على سبيل الكنية أو كجزء من اسم شخصي، ولكن كوظيفة إدارية. فلقب الأمين شاع استخدامه في تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس، كدلالة على وظائف مختلفة تشمل «مفتش السوق»، أو«جامع الضرائب» ، أو «رئيس الطائفة الحرفية»[168]. ولقب الأمين أيضًا –بحسب البكري– كان يحمله القاضي في مملكة غانة، الذي كان يحتكم إليه أهل غانة في قضاياهم ومختلف مشاكلهم اليومية[169]؛ ولذلك نرجح أن اللقب الوارد على النقش من الممكن أن يكون لقاضي تادمكة.

هناك شاهد قبر آخر ذو طابع سياسي عُثر عليه في الجبانة نفسها، وهو لشخص استشهد في إحدى المعارك، وحمل لقب الأمير[170]، اسم صاحب الشاهد هو الأمير غَرْدَ بن سَمَال الذي استشهد يوم الخميس الموافق 23 ذو القعدة من عام 639هـ/1242م[171].

ويظهر من الشاهد أن صاحبه كان أميرًا من أمراء البيت الحاكم في تادمكة، وأنه استشهد في إحدى المعارك. كما يتبين أن ملك تادمكة كان يعتمد في تسيير شؤون مملكته على عدد من الأمراء الذين كانوا ينوبون عنه في حكم الأقاليم.

والسؤال الذي يفرض نفسه: أكانت تادمكة مدينة تجارية تابعة لسلطة محلية ببلاد السودان الغربي أو الأوسط أم أنها كانت مملكة مستقلة بذاتها خلال فترة هذا البحث؟

للإجابة عن هذا التساؤل، سنرصد علاقات تادمكة بجيرانها لا سيما الممالك الكبرى التي تبادلت السيطرة السياسية في بلاد السودان الغربي، وذلك في ضوء ما تطرحه المصادر المتاحة من إشارات.

العلاقات السياسية بين مملكة تادمكة وجيرانها:

من خلال ما طرحته المصادر يتبين أن حكام تادمكة ظلوا مستقلين حتى نهاية القرن الخامس للهجرة، وأن مملكتهم لم تخضع للدول المستقلة بالمغرب الإسلامي، بعكس ما جزم به بعض الباحثين بخضوعها لبعض الدول المستقلة بالمغرب؛ مثل دولة بني مدرار (140 – 366هـ/757 – 976م)، والدولة الرستمية (160 – 296هـ/777 – 907م)، ودولة الأدارسة (172–375هـ/788–985م). وقد أورد الدكتور إبراهيم السلمي هذا الخبر ونسبه إلى كل من ابن حوقل، والبكري[172]. وبالرجوع إلى هذين المصدرين لم نجد أية إشارة تتعلق بخضوع تادمكة لأي من دول المغرب الإسلامي.

وفيما يتعلق بالاستنتاج القائل بخضوع تادمكة لدولة الأدارسة، استند أصحاب هذا الاستنتاج إلى إشارة أوردها كل من ابن خرداذبة (المتوفى حوالي 300هـ/912م)، وصاحب كتاب حدود العالم، تتعلق بتبعية بلاد زاغي بن زاغي أو (راعي بن راعي) لسلطة دولة الأدارسة بالمغرب[173]. وقد فسر أصحاب هذا الاستنتاج تلك الإشارة بأنها تعني خضوع بلاد السودان حتى مدينة زاغة[174] على نهر النيجر لسلطة الأدارسة[175]. وهذا استنتاج غير صحيح فمن خلال ما تطرحه المصادر لم تصل حدود دولة الأدارسة إلى تلك المنطقة مطلقًا، ومنها بلدة زاغة الواقعة على الضفة الغربية لنهر النيجر، وعمومًا فحتى لو صدقنا رواية امتداد سلطة الأدارسة إلى بلدة زاغة، فلا يوجد أي دليل على امتداد سلطة الأدارسة إلى قلب الصحراء في الشمال الشرقي من نهر النيجر؛ حيث توجد تادمكة.

وعمومًا يشهد على استقلال ملوك تادمكة أيضًا أن المصادر لم تشر إلى خضوعهم للقوى المحلية المجاورة، لا سيما إمارة جاو، ومملكة غانة، بل إنه نتيجة للثروات التي حققها بنو تانماك من النشاط التجاري عبر الصحراء، لا سيما تجارة الذهب؛ امتلكوا قوة حربية وسياسية جعلتهم يفرضون سيطرتهم على بعض المدن المجاورة، فنجحوا في بسط نفوذهم على مدينة تسمى سغمارة شمال شرق تادمكة على مسيرة ستة أيام على الطريق الرابط بين تادمكة وغدامس[(176)]، وقد سكن هذه المدينة جماعة من البربر[(177)]. ويظهر أن سيطرة تادمكة عليها جاءت لاعتبارات اقتصادية أكثر منها سياسية، فسغمارة كانت تقع على الطريق التجاري بين تادمكة وغدامس. ويحتمل أن بربر سغمارة كانوا يتعرضون للتجار المارين عبر هذا الطريق؛ الأمر الذي استدعى من حكام تادمكة إخضاعهم.

كما نجحت تادمكة في السيطرة على مدينة تكرت التي تبعد عنها بعشرين مرحلة جهة الجنوب، وتبعد عن وارجلان بسبعين مرحلة، وكانت تسكنها قبائل صنهاجة اللثام[(178)].

في ضوء ما سبق يتضح أن تادمكة لم تكن مجرد مدينة تجارية، وإنما كانت مملكة أخضعت لحكمها بعض المدن، ويؤكد ذلك أنها بحسب ياقوت الحموي (المتوفى عام626هـ/1229م)، اتخذت من مدينة تسمى زَكْرَام عاصمة لها[(179)]. وعلى الرغم من إشارة ابن حوقل إلى أن تادمكة كانت مملكة، وعلى الرغم من سيطرتها على بعض المدن المجاورة، فإن هذا لا يحيلنا على نظام سياسي وهياكل إدارية واقتصادية محكمة التنظيم، ونسيج حضري كثيف، بقدر ما يشير إلى تجربة مجموعة من القبائل الصنهاجية التي أوجدت لنفسها نظام حكم مستقل، وحاولت فرض نفوذها على عدد من المدن المجاورة والاستفادة من النشاط التجاري عبر الصحراء بحكم موقعها المتميز.

على أي الأحوال، حافظ ملوك تادمكة على استقلالهم حتى مطلع القرن السادس للهجرة، حينما أشار الزهري إلى تعرضها للغزو الغاني، فما حقيقة هذا الغزو؟

مسألة الغزو الغاني – المرابطي لتادمكة:

تشير بعض الدراسات – استنادًا إلى ما أورده الزهري – إلى أنه في عام 476هـ/1083م، وقع صدام بين تادمكة ومملكة غانة القوية، وأنه حدث تنسيق بين الأخيرة والمرابطين لغزو تادمكة(180)، وأن ملوك تادمكة فقدوا استقلالهم نتيجة هذا الغزو(181). وأرجع البعض أسباب هذا الغزو إلى الرغبة المرابطية الغانية في القيام بحركة جهادية لنشر الإسلام السني في ممالك السودان ومدنه، سواء بين الوثنيين أم بين السكان الذين اعتنقوا الإسلام على المذهب الإباضي. ولذا عملت مملكة غانة على حمل الإسلام السني إلى بعض الممالك المجاورة، ومنها تادمكة التي تعرضت للحملات التي قادها أهل غانة نحو تادمكة من أجل حمل أهلها على الإسلام، بعد أن جرت بينهم حروب وفتن كثيرة، مما دفع أهل غانة للاستعانة بالمرابطين(182).

إن معلومات الزهري عن السودان الغربي وأحداثه يشوبها الاضطراب، لعدم معرفته بالمكان وأحداثه، فنقل أخبارًا مغلوطة(183)، فعلى سبيل المثال زعم أن المرابطين غزوا غانة عام 469هـ/1076م، فكيف أعان المرابطون مملكة غانة على غزو تادمكة بعد سبع سنوات من الغزو المرابطي لغانة؟! خاصة أن الزهري تحدث عن تحالف غاني مرابطي، ناسيًا أنه ذكر من قبل أن المرابطين أخضعوا غانة. أضف إلى ذلك أن هذه الرواية غريبة ومشكوك فيها؛ فبخلاف أنه المصدر الوحيد لهذا الخبر، وأن المصادر المعاصرة في القرن السادس للهجرة ولا سيما الإدريسي لم تشر إلى هذه الحادثة لا من قريب ولا من بعيد، هناك بعض الإشارات تحملنا على رفض هذه الرواية، منها أن ازدهار مملكة تادمكة

وذكرها في المصادر خلال الفترة الممتدة منذ منتصف القرن الثالث حتى بداية القرن السادس للهجرة كان يرتبط بازدهار دورها في التجارة عبر الصحراء، بل إن نشوء المراكز الحضارية أو مدن القوافل كان يعد حدثًا تاريخيًا بارزًا، لما ينجم عن ذلك من استقرار واستبحار للعمران وتطور أساليب العيش(184)؛ من ثم فإن ضعفها كان نتيجة لتراجع دورها في التجارة عبر الصحراء.

أضف إلى ذلك أنه على الرغم من توسع حدود غانة جهة الشرق –حيث توجد تادمكة– لمسافة تمتد لمسيرة ستة أيام حتى مدينة تِيرَقَّى خلال منتصف القرن السادس الهجري وفقًا للإدريسي(185)، بعد أن كانت ممتدة لمسيرة ثلاثة أيام حتى مدينة سفنقو(186) في عهد البكري في منتصف القرن الخامس للهجرة(187)؛ فإن هذا الامتداد لم يكن يمكنها حتى من الاقتراب من حدود تادمكة، فالمسافة بين غانة وتادمكة وفقًا لتقديرات البكري امتدت لمسيرة خمسين يومًا(188)، وهذا يكشف بجلاء أن حدود تادمكة كانت بعيدة كل البعد عن آخر حد انتهت إليه مملكة غانة في الجهة الشرقية.

وعلى ذلك فإن اختفاء ذكرها من المصادر يرتبط بضعف دورها في التجارة عبر الصحراء وليس لعوامل الغزو المزعوم، فحتى لو صدقنا بوقوع الغزو الغاني المرابطي لتادمكة فلماذا لم تعد تؤدي دورها في التجارة عبر الصحراء خلال القرن السادس للهجرة؟ خاصة أنه من المعلوم أن سيطرة القوى والممالك السياسية في بلاد السودان الغربي على أحد المراكز التجارية المهمة كان لأغراض تنمية النشاط التجاري لصالح تلك القوى؛ من ثم فإن دور تلك المراكز لم يكن ليختفي أو يتراجع تبعًا لتلك السيطرة، وإنما كان يتدعم ويزداد ازدهارًا، ودليل ذلك أن سيطرة مملكة غانة على ولاتة(189) كان بغرض إحكام سيطرتها على النشاط التجاري خلال القرن السادس للهجرة(190)، ثم سيطرة مملكة مالي(191) على مدن ولاتة، وجاو، وتنبكت خلال القرنين السابع والثامن

للهجرة، استتبعها ازدياد التفوق التجاري لتلك المدن على ما سواها من مدن وحواضر بلاد السودان الغربي خلال الفترة الممتدة من القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر للهجرة/ الثاني عشر حتى نهاية السادس عشر للميلاد.

وقد تزامن مع هذا بعض التغيرات التي عرفتها خريطة المحاور التجارية عبر الصحراء؛ فقد تراجعت أهمية المحورين الشرقي والغربي لصالح المحور الأوسط الذي يمر بتغازة[192] نتيجة نمو إنتاج مملحة تغازة، مع الأهمية المعروفة للملح في التجارة عبر الصحراء[193]؛ من ثم لم تكن غانة في حاجة إلى السيطرة على تادمكة التي تراجعت أهميتها في المحور الشرقي، مثلما تراجعت أهمية أودغست في المحور الغربي منذ الغزو المرابطي لها عام 446هـ/ 1055م[194].

في ضوء تلك المعطيات نرجح عدم تعرض تادمكة لغزو غاني مرابطي، وأن تراجعها كانت له أسباب أخرى.

خامسًا – الأنشطة الاقتصادية في مملكة تادمكة:

تعددت الأنشطة الاقتصادية في تادمكة، تلبية لاحتياجات سكانها والتجار الوافدين عليها أو المستقرين بها، وسوف نرصد أوجه هذه الأنشطة.

1 – النشاط الزراعي:

لم تساعد الطبيعة الصحراوية لأرض تادمكة على قيام نشاط زراعي؛ فالمصادر تؤكد قلة أقوات هذه المملكة، فقد ذكر ابن حوقل أن قبائل بربر تادمكة غلب عليهم الشقاء، ولم يعرفوا الطعام وليس عندهم الحنطة ولا الشعير ولا أي نوع من الحبوب[195].

واتفق كل من البكري، وصاحب الاستبصار مع ابن حوقل، وذكروا أن أهل تادمكة لم يكن عندهم قمح ولا شعير، ولكنْ عندهم حب تنبته الأرض من غير

حرثٍ يشبه الذرة. وللتغلب على هذه المشكلة اضطر أهل تادمكة لجلب الذرة وسائر الحبوب الغذائية الأخرى من بلاد السودان[196].

وتتفق نتائج الحفائر مع ما أوردته المصادر؛ إذ عثر في حفائر تادمكة على بعض حبات القمح ترجع للفترة ما بين 133 – 803هـ/750 – 1400م، يرجح استيرادها من بلاد المغرب الإسلامي أو من الواحات الصحراوية الشمالية[197]. ولهذا الأمر مغزىً كبير؛ إذ يتبين تجارة التادمكيين في الحبوب الغذائية الأساسية، لا سيما القمح نتيجة عدم زراعته في تادمكة[198].

كما عثر في مواقع الحفر على حبوب الدخن المسماة بالدخن اللؤلؤي؛ لأنها تشبه حبة اللؤلؤ، وهي من أهم المحاصيل المناسبة للبيئة الصحراوية الجافة شديدة الحرارة. ولها أهمية كبرى؛ فبالإضافة إلى كونها أحد الحبوب الأساسية كانت تستخدم كعلف للحيوانات. ويرجع تاريخ هذه الحبوب إلى الفترة الممتدة بين عامي 133 – 494هـ/750 – 1100م، وكان عدد الحبوب التي عثر عليها خلال هذه الفترة قليلاً. بينما عثر على أعداد كثيرة من هذه الحبوب تنتمي للفترة الممتدة بين عامي 494 – 803هـ/1100 – 1400م[199]. كما عثر على بذرتين من حبوب الفونيو، وهي أحد أنواع حبوب الديجيتاريا التي اشتهرت بزراعتها منطقة السودان الغربي وتجود زراعتها أيضًا في الأراضي الجافة والحارة. ويرجع تاريخ هاتين البذرتين إلى الفترة ما بين عامي 494 – 700هـ/1100 – 1300[200].

يتضح مما سبق أن ظروف البيئة الصحراوية لم تساعد على قيام نشاط زراعي في تادمكة؛ ومن ثم لجأ أهلها إلى استيراد أقواتهم من الحبوب، وليس صحيحًا ما أكده أحد الباحثين من وجود زراعة محلية للقطن في تادمكة استنادًا إلى بعض بذور القطن التي عثر عليها في موقع تادمكة/السوق[201]، فلم تكن أرض تادمكة تصلح لزراعة القطن، وإنما استورده أهلها[202].

2 – النشاط الرعوي:

على عكس النشاط الزراعي، كانت أرض تادمكة صالحة للرعي[203]، فضلاً عن أن القبائل التي سكنتها من بربر صنهاجة كانت حرفتها الرئيسة هي الرعي إلى جانب النشاط التجاري.

يستشف من الإشارات الواردة في المصادر وجود حرفة تربية الحيوانات في تادمكة، فالمصادر تتحدث عن عيش أهلها على الألبان واللحوم[204]، والراجح أن أهل تادمكة اهتموا بتربية الحيوانات التي تتحمل ظروف الفقر البيئي، لا سيما الإبل؛ نتيجة لتعدد استخداماتها سواء بالنسبة للغذاء، أو حتى استخدامها في التجارة عبر الصحراء. وتورد المصادر الإباضية بعض الإشارات عن ازدهار تجارة الجمال في سوق تادمكة[205]. وعمومًا تعد هذه الحرفة واحدة من أهم الحرف، كونها مصدرًا أساسيًا للغذاء.

3 – النشاط الصناعي والحرفي:

لم تكن تادمكة – كما تحمل المصادر الجغرافية على الاعتقاد – مجرد محطة للتجارة عبر الصحراء ترد إليها البضائع، وتعيد توزيعها، فقد أثبتت نتائج الحفائر في موقع هذه المدينة على وجود حرف وصناعات متنوعة، أهمها:

(أ) صهر الذهب وضرب العملة:

اتفقت المصادر الجغرافية والتاريخية وكتب الرحالة على كثرة معدن الذهب في بلاد السودان الغربي. وكانت تادمكة تقع إلى الشمال من أهم حقول استخراج الذهب، وهو حقل سربا Sirba[206]، بل بالقرب من واحدة من أهم محطات تجميعه وتجارته عبر الصحراء، وهي مدينة جاو التي تبعد عن تادمكة بتسعة أيام[207].

وعلى الرغم من ذلك تصمت المصادر عن ذكر أي معلومات تتعلق بوجود حرفة لسبك الذهب وصهره، على نحو يحمل على الاعتقاد بأن خام الذهب كان يستخرج من مواقعه، ثم يصدر إلى الشمال دون دخوله في أية صناعات، أو دون إجراء أية عملية لصهره وتنقيته من الشوائب.

لم تقدم المصادر الجغرافية وكتب الرحلات أيضًا أي دليل على وجود ضرب للعملة في بلاد السودان، أو في المدن والممالك الصحراوية، بالرغم من توافر مقومات هذه الحرفة وأهمها معدنا الذهب والنحاس، لكن البكري ينفرد بوصفٍ دقيق لوجود عملة استخدمت في تادمكة خلال القرن الخامس للهجرة، وهي دنانير ذهبية غير مسكوكة أو غير مختومة تسمى «الصُّلع»[208]. وتلك الإشارة هي الوحيدة في المصادر التي تثبت التعامل بالعملة المعدنية في ممالك الصحراء وبلاد السودان حتى القرن العاشر للهجرة، حينما شاهد الوزان (المتوفى عام 960هـ/1552م) بنفسه تعامل أهل تنبكت وجني بدنانير ذهبية غير مختومة[209]. فهل كان البكري مخطئًا حينما انفرد بهذا الخبر في القرن الخامس؟

أثبتت نتائج الحفائر صحة ما ذهب إليه البكري؛ إذ اكتشف في موقع الحفر عملات ذهبية غير مختومة[210]؛ ومن ثم تتفق هذه النتيجة مع ما أورده البكري حول دنانير تادمكة المسماة بالصلع[211]، ويتبين أيضًا وجود دليل على ضرب العملة الذهبية في تادمكة.

وتمدنا نتائج الحفائر بتفاصيل مهمة حول هذه الصناعة، بدءًا من عملية صهر الذهب وتنقيته من الشوائب وانتهاء بضرب العملة الذهبية، فقد اكتشفت بقايا أفران من الطين المحروق لصهر الذهب في درجات حرارة عالية[212]؛ إذ كان صهر المعدن وإذابته يتطلب درجة حرارة، تراوح بين 1050 و 1100 درجة مئوية[213].

ثم تأتي مرحلة ضرب العملات في قوالب مصنوعة من الخزف، دل على ذلك اكتشاف ثلاثة قوالب خزفية لضرب العملة الذهبية في موقع تادمكة[214]، وباستخدام التأريخ الإشعاعي (Radiometric Dating)[215] تبين أن هذه القوالب ترجع إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين[216]، وتحديدًا خلال الفترة الممتدة مابين عامي 236 و339هـ/850 و950م[217]؛ أي قبل أن يكتب البكري عن دنانير تادمكة بأكثر من قرن.

ويتبين من هذه المكتشفات مهارة حرفيي تادمكة في سبك معدن الذهب وإذابته وتنقيته تمهيدًا لضرب العملة؛ إذ كانوا يستخدمون الزجاج المنصهر لتنقية الذهب من الشوائب، بدليل العثور على بوتقة عليها بقايا زجاج لونها أزرق فاتح، وأخرى لونها أخضر، وعلى سطح البوتقات بعض حبيبات الذهب النقية، وترجع هذه المكتشفات للقرنين الثالث والرابع للهجرة[218].

ونتيجة مهارة حرفيي تادمكة في صهر الذهب وسبكه، وصلت نسبة نقاء الذهب المستخرج من تادمكة لحوالي 98%، وأقل نسبة نقاء لم تقل عن 94%، وهي أعلى درجة نقاء في خام الذهب الذي تم اكتشافه في المواقع المختلفة في غربي إفريقيا[219].

وعمومًا يعد هذا الاكتشاف أول دليل ملموس على ضرب النقود المعدنية الذهبية سواء في المدن والممالك الصحراوية أم السودانية، لا سيما أن المصادر أكدت استخدام بعض السلع كعملات مثل الودع والأصداف، وسبائك النحاس، والقماش، وغيرها[220].

وتشهد هذه المكتشفات على أن اقتصاديات الذهب لم تقف عند مجرد استخراجه ثم بيعه للتجار القادمين من الشمال سواء من بلاد المغرب الإسلامي أم من مصر. فالمسألة كانت أكثر تطورًا من الناحية الاقتصادية والحرفية. وهكذا يبدو جليًا

استفادة التادمكيين من توافر معدن الذهب بكثرة، فقاموا بصهره وتنقيته، ثم ضربوا الدنانير غير المسكوكة. ومن هنا نطرح سؤالاً مهمًا، وهو: لماذا لم يختم التادمكيون عملتهم بأية أختام، ولماذا جاءت خالية من أية كتابات؟

لم يأت ضرب دنانير تادمكة على هذا النحو اعتباطًا؛ ذلك أن الدنانير غير المختومة كان الهدف منها تسهيل حركة التجارة الواسعة عبر الصحراء، فتلك الدنانير الخام غير المختومة كانت ذات قيمة مادية كبيرة بالنسبة للمستوردين من بلاد المغرب والأندلس، فلم يكن يكلفهم الأمر سوى ختمها لتصبح عملة ذهبية على درجة عالية من النقاء، بدلاً من إعادة صهرها وتنقيتها من جديد؛ ومن ثم كان من السهل على السلطات الحاكمة في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس سك عملات باسمهم[221].

يؤكد هذا ما أورده الإدريسي عن أهل وارجلان أنهم وأهل المغرب الأقصى الأكثر شراءً لذهب السودان، وأنهم أخرجوه إلى دور السكة في بلادهم فكانوا يضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع في كل سنة[222]. بل يظهر من الخبر الذي أورده صاحب الاستبصار أن وارجلان استفادت بدورها من صلاتها التجارية مع تادمكة، فضربت الدنانير الذهبية بوارجلان، وهي دنانير مشهورة تشبه الدنانير المرابطية[223].

في ضوء ما سبق لا يُستبعد استغلال الأغالبة والفاطميين والمرابطين لذهب تادمكة في ضرب عملاتهم؛ فالفترة التي ازدهرت فيها تادمكة هي نفسها التي عرفت فيها تلك الدول أوج ازدهارها الاقتصادي، وكان أحد أسباب هذا الازدهار ذهب السودان، لا سيما أن العملة الذهبية الفاطمية[224] والمرابطية اعتمدت على أجود أنواع الخام من الذهب؛ ومن ثم يُرجح استغلال الفاطميين والمرابطين ذهب تادمكة؛ نتيجة لدرجة نقائه العالية التي تفوق بها على كل الذهب المكتشف في مواقع الحفر بغربي إفريقيا[225].

استطاعت أيضًا مدينة زَوِيلة[226] عاصمة إقليم فزان الواقعة في قلب الصحراء[227] على طريق التجارة مع تادمكة ضرب عملة ذهبية خاصة بها خلال القرن الخامس للهجرة تحت حكم أسرة بني الخطاب الإباضية (حكمت من أواخر القرن الثالث للهجرة حتى عام 568هـ/1172م)[228]، مستفيدة من صلاتها التجارية عبر الصحراء[229]، وقد ضرب دينار في زويلة عام 414هـ/1023م حمل اسم الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (411 - 427هـ/1020 - 1035م). ونتيجة تفوق تادمكة في ضرب العملات الذهبية غير المختومة، فمن المرجح أن هذه العملات وجدت سبيلها إلى زويلة وسُكت هناك[230]، فزويلة في عهد إمارة بني الخطاب كانت دائمة الاتصال بممالك السودان الغربي عبر الطريق الشرقي المار بتادمكة، وكانت تشرف على هذا الطريق إشرافًا مباشرًا؛ لوقوع العاصمة زويلة في قلب الصحراء، فكان من السهل عليها الارتباط شمالاً بسواحل البحر المتوسط، وجنوبًا بمدن وممالك الصحراء وبلاد السودان الغربي[231].

بالإضافة إلى ضرب العملات الذهبية في تادمكة تؤكد نتائج الحفائر ضرب عملات نحاسية وفضية؛ إذ عثر على ست عملات نحاسية وفضية ترجع للفترة ما بين عامي 494 - 803هـ/1100 - 1400م[232]. وكان الهدف من ضرب هذه العملات تسهيل عملية التبادل التجاري.

هكذا يتبين وجود حرفة لصهر الذهب وتنقيته من الشوائب في تادمكة، بالإضافة إلى قيام التادمكيين بضرب العملات الذهبية والنحاسية والفضية.

(ب) صناعة الزجاج:

يظهر مما تطرحه بعض المصادر أن الزجاج كان يحظى بطلب كبير في التجارة عبر الصحراء، وأن التجار المسلمين كانوا يرجعون بنفس وزنه ذهبًا[233]. وتلك دلالة مهمة على أهمية الزجاج وارتفاع ثمنه، ونرجح أن

زيادة الطلب على المصنوعات الزجاجية من طرف أهل السودان الغربي؛ قد دفع أهل تادمكة لاستثمار موقع مملكتهم على طرق التجارة عبر الصحراء، فقاموا بتصنيع سلعة مهمة كالزجاج التي عرفت إقبالاً واضحًا من طرف أهل السودان الغربي. وقد ساعدهم على هذا وفرة المادة الخام المستخدمة في صناعة الزجاج، وهي الرمال؛ إذ ثبت وجود صناعة للزجاج في تادمكة، بدليل العثور على بوتقتين لتصنيع الزجاج[234] يظهر عليهما بقايا رمال صفراء، وبقايا زجاج لونها أزرق فاتح، وأخرى لونها أخضر باهت. كما تم اكتشاف شظايا زجاج وخرز زجاجي[235] في موقع الحفر، وترجع هذه المكتشفات إلى القرنين الثالث والرابع للهجرة[236].

(جـ) الصناعات المعدنية:

عمل أهل تادمكة أيضًا في الصناعات المعدنية، يؤكد ذلك اكتشاف بقايا بوتقات لصهر الحديد والنحاس، كما اكتشف بقايا أفران وورش لصهر هذه المعادن وتصنيعها[237]. وتعود معظم هذه الاكتشافات للفترة من القرن الثالث إلى الخامس للهجرة/التاسع إلى الحادي عشر للميلاد[238].

تؤكد هذه الاكتشافات أن تادمكة استفادت من النحاس الذي استوردته من بلاد المغرب الإسلامي في بعض الصناعات النحاسية بعد إعادة صهره[239]، لا سيما صناعة الحلي من النحاس؛ إذ يؤكد الإدريسي ذلك بقوله عن أهل السودان «وحليهم من النحاس»[240]. وتدلنا المصادر على الطلب السوداني المتزايد على النحاس واستيراده بكميات كبيرة، لا سيما من المغرب الأقصى، ومن مدينة أَغْمَات[241] تحديدًا، وأنه كان تتم مبادلته بالذهب[242].

(د) حرفة البناء:

تعد حرفة البناء من الحرف الضرورية للعمران، ولا تحتاج لأدلة على وجودها الرغم من صمت المصادر عن إعطاء أية إشارات بشأنها في تادمكة، وعلى الرغم من غياب الأدلة على وجود حرفة البناء في المصادر، تأتي نتائج الحفائر الآثارية لتسد هذا النقص من جديد، بدليل اكتشاف آثار لمسجد جامع في الجنوب الشرقي من موقع تادمكة/السوق[243]، وباستخدام الكربون المشع تبين أن هذا المسجد يرجع تاريخه للقرنين الخامس والسادس للهجرة[244].

كما عُثر على بقايا مبانٍ استخدم فيها الطوب المصنوع من الجص الملون باللونين الأبيض والأحمر، وهذا الإنتاج من موارد البيئة الطبيعية التي كانت أكثر سهولة وفي متناول الفقراء[245]. كما اكتشفت بعض الغرف المبنية بالأحجار، استخدم بعضها للسكن وأخرى لأغراض تجارية؛ إذ عُثر في إحدى هذه الغرف على بقايا قطع ذهبية، وخرز زجاجي، وشظايا من الخزف المزجج[246]. ومن هنا نرجح أنها كانت تستخدم لأغراض تجارية، وأن النشاط التجاري أسهم في ازدهار بعض الحرف ومنها حرفة البناء.

(هـ) الصناعات الجلدية:

توافرت مقومات هذه الصناعة –لا سيما الجلود– في تادمكة، نتيجة وفرة الماشية واعتماد السكان على النشاط الرعوي كحرفة أساسية، وعلى لحوم الماشية وألبانها كغذاءٍ رئيس[247]. كما استفادت تادمكة من صلاتها التجارية مع مدينة غدامس وقدرت المسافة بينهما بأربعين مرحلة[248]، وقد اشتهرت غدامس بصناعة الجلد الغدامسي الذي يرجح حمل التجار له إلى تادمكة، يؤكد هذا ما ذكره الجغرافيون عن دخول تجار غدامس لتادمكة وغيرها من بلاد السودان[249].

ونستدل من بعض الإشارات الواردة في كتب السير والطبقات الإباضية على وجود صناعات قائمة على الجلود في تادمكة، منها صناعة أكياس من جلود البقر لحفظ النقود الذهبية، فيذكر أن تاجرًا من بلاد الجريد بتونس يدعى أبا تملي الوسياني الذي كان تلميذًا للشيخ أبي خرز يعلا بن زلتاف (المتوفى عام 380هـ/990م)، استقر بتادمكة وكان يبعث منها كل سنة ستة عشر كيسًا مصنوعًا من جلود البقر، وفي كل كيس خمسمائة دينار[250].

(و) حرفة غزل القطن:

عثر على بذور قطن مؤرخة بالفترة ما بين 411-545هـ/1020-1150م، لكن هذا لا يعني التأكد من وجود زراعة محلية للقطن وإنما يرجح استيراده وغزله في تادمكة، لا سيما أن محصول القطن يحتاج إلى كمية وفيرة من المياه، كما أن زراعته عرفت منذ القدم في الواحات الصحراوية القريبة سواء في فزان، أم في الواحات المصرية[251]. كما كان من السهل الحصول على القطن نتيجة وفرته وزراعته في بعض مدن وممالك السودان الغربي، ولا سيما في مملكة التكرور[252]؛ إذ يشير ابن سعيد إلى ذلك بقوله «وفي ديارهم شجر القطن»[253].

(ز) حرفة الكتابة على الصخور:

من خلال النقوش يتأكد وجود بعض الحرفيين الذين اشتغلوا بحرفة النقش على الصخور، سواء باللغة العربية أم بلغة التفيناغ، التي كانت تحتاج إلى مستوى عالٍ من المهارة. ويظهر من الأسماء الموجودة على بعض النقوش وجود عدد من النحاتين الذين احترفوا النقش على الصخور، وشواهد القبور، وجاءت معظم هذه الكتابات بالخط الكوفي. ويرجح أن هناك بعض الأسر التي عملت في هذه الحرفة، مثل عائلة أبي بكر[254]؛ فقد حمل شاهدان أحدهما غير مؤرخ، والثاني مؤرخ بعام 612هـ/1215م، الأول كتبه بَجَالُ بن أبي بكر،

والثاني كتبه إبراهيم بن أبي بكر[255]. وعمومًا فإن مهارة النقش على الصخور كانت شائعة لدى مجتمعات الطوارق الذين سكنوا تادمكة[256].

يظهر مما تقدم ازدهار القطاع الصناعي والحرفي في تادمكة، وأنها لم تكن مجرد محطة لتبادل السلع، لا سيما أنها لم تكن من مناطق إنتاج الذهب أو السلع المهمة الأخرى، لكنها أفادت من موقعها المتميز كمدخل للقوافل القادمة إلى بلاد السودان من الجهة الشرقية، وأفادت من قربها من مناطق استخراج الذهب، ومن المحطات التجارية الكبرى، فطور أهلها القطاع الصناعي والحرفي لتحقيق أكبر قدر من الاستفادة من التجارة عبر الصحراء، كي لا تصبح مملكتهم مجرد محطة عبور صحراوية أو ترانزيت تنزل بها القوافل قبل الدخول إلى بلاد السودان، أو محطة نهائية للتزود بالماء وبعض الأغراض قبل رحلة العودة.

4 – التجارة الداخلية والخارجية:

يعد النشاط التجاري واحدًا من أهم الأنشطة الاقتصادية لسكان تادمكة، وهو النشاط الذي طور لأجله التادمكيون جل أنشطتهم الحرفية، فقد أمكن لتادمكة نتيجة موقعها المتميز في الإسهام بدور مهم في التجارة عبر الصحراء من ناحية، وفي التجارة مع جاراتها من مدن وممالك السودان من جهة ثانية. ساعدها على هذا موقعها في شمال شرق منحنى نهر النيجر؛ حيث توجد مدينة جاو، التي تبعد عنها بتسع مراحل فقط. وقد ساعدها موقعها هذا في المساهمة بفاعلية في التجارة عبر الصحراء الكبرى؛ لوقوعها على نهاية الطريق الأوسط الذي يعبر الصحراء نحو بلاد المغرب الإسلامي، فأصبحت النهاية الرئيسة لهذا الطريق[257]. ومما زاد من أهميتها أيضًا وقوعها على الطريق الشرقي الرابط بين بلاد السودان الغربي ومصر[258].

ولابد أن نوضح بداية أهم طرق التجارة التي ربطت تادمكة ببلاد المغرب الإسلامي ومصر شمالاً، وبالمدن والمحطات التجارية السودانية جنوبًا.

(أ) الطرق التجارية:

يظهر من خلال ما طرحته المصادر أن تادمكة ارتبطت بثلاثة طرق تجارية رئيسة، فارتبطت شمالاً بطريق نحو القيروان عبر وارجلان. وطريق نحو الشرق يصلها بمدينتي غات، وفزان، ومنها إلى مصر. وطريق إلى الجنوب نحو جاو، ومنه إلى غانة. ويمكن تحديد هذه الطرق فيما يلي:

هناك طريق يربط بين تادمكة وبلاد المغرب الأوسط، وهذا الطريق كان يبدأ من مملكة غانة، ويمتد عبر مدينة جاو إلى تادمكة ثم إلى وارجلان[259]، وهذا هو الطريق الأوسط للتجارة عبر الصحراء. وقد بلغت المسافة بين غانة وتادمكة خمسين مرحلة، عبر عدة محطات، وصف البكري بعضًا منها، تبدأ من غانة نحو أوغام[260] في مسيرة قدرها أربع مراحل، ثم من أوغام إلى رأس الماء[261] في مسافة قدرها أربع مراحل أيضًا، ثم يمتد المسير إلى تيرقى لمسافة ست مراحل، ومن تيرقى إلى بلاد سغمارة ثلاث مراحل. ويمكن الانطلاق من غانة إلى بلدة تسمى بوغرات، ومنها إلى تيرقى، ثم إلى كوكو (جاو)، ثم إلى تادمكة، والمسافة بين جاو وتادمكة تسع مراحل، ثم من تادمكة إلى وارجلان، والمسافة بينهما خمسون مرحلة[262]. وعند وارجلان كان هذا الطريق يتفرع لطريقين، أحدهما ينطلق نحو مدينة تاهرت، والآخر نحو القيروان. وقد قدرت المسافة بين القيروان وتادمكة بواحد وسبعين يومًا، فكان هذا الطريق يتجه من تادمكة إلى وارجلان قاطعًا مسافة قدرها خمسون يومًا، ومن وارجلان يتجه إلى قسطيلية[263] (ببلاد الجريد) قاطعًا مسافة قدرها أربعة عشر يومًا، ومنها إلى القيروان في سبعة أيام[264].

ويعد ليفيتسكي هذا الطريق المار عبر وارجلان وتادمكة الأكثر قدمًا، والأكثر استخدامًا بالنسبة للقوافل التجارية بين بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي بوجهٍ عام[265].

وكان تجار الإباضية يفضلون طريق وارجلان تادمكة في طريقهم نحو غانة، فهناك عدة أمثلة لتجار إباضية مروا بهذا الطريق خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة، منهم أبو موسى هارون بن أبي عمران الوسياني الذي مر على وارجلان في طريقه نحو غانة وغيارو(266). ومنهم عمران بن محمد بن رستم الذي سافر إلى غانة عبر وارجلان(267). لكننا نتساءل لماذا فضل التجار سلوك هذا الطريق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة؟

عُدّ هذا الطريق أهم طريق يربط السودان الغربي بالشمال الأفريقي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، لأن موقع تادمكة بالقرب من نهر النيجر، وبالقرب من جاو الواقعة على نهر النيجر جعل منه طريقًا سهلاً ربط هذه المناطق ببلاد السودان ومناجم الذهب في ونقارة(268) وغيرها، وهو الأمر الذي يفسر ارتياد بعض تجار الإباضية لهذا الطريق ثم وصولهم إلى مدينة غيارو التابعة لغانة، نظرًا لعدم وجود مناجم للذهب في تادمكة أو في جاو، ولذلك تحمل بعض التجار مشاق الوصول إلى غانة، ولأن الطريق المذكور كان أكثر يسرًا وأمنًا من غيره(269).

فقد زاد من أهمية هذا الطريق الأوسط للتجارة عبر الصحراء، ما شهدته الجهة الغربية من الصحراء من تناحرات ومنافسات قبلية داخل القبائل الصنهاجية منذ أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وكانت نتيجة هذه الخلافات أن فقدت صنهاجة الصحراء سيطرتها على مدينة أودغست ذات الأهمية التجارية البالغة، إذ سيطرت عليها مملكة غانة خلال الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة(270). وواكب هذا الضعف والتراجع هيمنة قبائل زناتة على مدينة سجلماسة بوابة الصحراء الشمالية التي أصبحت تحت حكم مغراوة (366 – 446هـ/976 – 1054م). وأدى هذا إلى تضييق المجالين الرعوي والتجاري أمام قبائل صنهاجة الصحراء؛ إذ أبعدوا عن الطريق التجاري

المهم سجلماسة – أودغست، من ثم نفهم ذلك الصراع الصنهاجي الغاني على محاور التجارة الجنوبية جهة الغرب، ونفهم تمسك بربر صنهاجة بالسيطرة على تادمكة في الجهة الشرقية.

أما الطريق الثاني الذي كان ينطلق من تادمكة نحو الشرق فهو طريق تنبكت – جاو– تادمكة – غات – فزان –أوجلة – القاهرة. ويتفرع منه طريق آخر ازدهرت فيه التجارة بين تادمكة وجبل نفوسة عبر محطات غات وغدامس(271). وقد قدر الطريق بين غدامس وتادمكة بمسيرة أربعين يومًا(272).

ويعد هذا الطريق من أشهر الطرق أيضًا، وبفضله أصبحت تادمكة مركزًا من المراكز التجارية المهمة بين تونس وبَرْقَة(273) ومصر وبلاد السودان(274).

وينطلق الطريق الثالث والأخير من غدامس نحو غانة مرورًا بتادمكة وجاو(275). ويفيدنا البكري بتوضيحات في هذا الخصوص، فيتحدث عن طريقين يربطان غدامس بغانة. وكان الطريقان يسلكان طريق تادمكة. وعند تادمكة كان أحد الطريقين يتجه مباشرة نحو الغرب في اتجاه غانة قاطعًا مسافة تقدر بخمسين يومًا عبر مدن تيرقى، وبوغرات(276)، وسَفنقو(277). أما الطريق الآخر؛ فيأخذ مساره نحو مدينة جاو قاطعًا مسافة قدرها تسعة أيام، ثم يتبع نهر النيجر، ثم يأخذ اتجاه الشمال الغربي نحو غانة(278).

وبالنظر للطرق السابقة واتجاهاتها ومحاورها يظهر أن إمارة جاو مهد مملكة صنغي قد تمكنت من دعم نشاطها الاقتصادي بالتنسيق مع جارتها الشمالية تادمكة، وأصبحت تلعب دورًا مهمًا في التجارة عبر الصحراء، مماثلاً للدور الذي لعبته غانة بمساعدة جارتها الشمالية أودغست، ففي حين تاجرت كل من غانة وأودغست مع المغرب الأقصى، تاجرت جاو وتادمكة مع المغربين الأدنى والأوسط، ومع مصر(279).

وبالنظر في المحاور التجارية سابقة الذكر يتبين أن تادمكة كانت سوقًا مهمًا ارتاده التجار القادمون من الشمال، واستقر بعضهم بها لفترات، ثم أكمل رحلته التجارية نحو مدن وممالك بلاد السودان الغربي، لا سيما مملكة غانة التي ازدهرت بها تجارة الذهب نتيجة وفرته، ومن ثم فإن تادمكة لم تكن نقطة بداية أو نهاية للطرق التجارية الرابطة بين شمال الصحراء وجنوبها[280]، وإنما كانت القوافل والتجار يجتازونها إما شمالاً أو جنوبًا.

(ب) الأسـواق:

تعد الأسواق هي الأساس لازدهار النشاط التجاري، إذ تتم فيها عمليتا البيع والشراء للسلع المحلية والمستوردة. ويتضح مما ذكره ابن حوقل (المتوفى عام 367هـ/977م)[281]، والبكري (المتوفى عام 487هـ/1094م)[282]، فضلاً عما ذكرته كتب الطبقات الإباضية مثل سير الوسياني (كان حيًا عام 557هـ/1161م)[283]، وطبقات الدرجيني (المتوفى حوالي 670هـ/1271م)[284]، وسير الشماخي (المتوفى عام 865هـ/1460م)[285]، أن تادمكة كان بها عدد من الأسواق التجارية النشطة التي قصدها التجار من شتى بلدان المغرب الإسلامي. واهتم أهل تادمكة بالتجارة لتوفير حاجة التجار القادمين إلى بلادهم سواء من قصدوا الاستقرار بها، أم أولئك الذين مروا بها في طريقهم لمملكة غانة، أو جاو، أو غيرهما من مدن وممالك بلاد السودان. وقد عُرض بأسواق تادمكة منذ منتصف القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، أصناف شتى من البضائع، لا سيما الذهب والرقيق.

ويظهر مما تطرحه المصادر أن تجار تادمكة ارتادوا بعض الأسواق في المدن المجاورة للحصول على بعض السلع بهدف عرضها في أسواق تادمكة أمام التجار القادمين إليها، فالبكري يؤكد ارتحال تجار تادمكة إلى أسواق المدن المجاورة ببلاد السودان، ومنها مدينة تِيرقّى الواقعة غرب تادمكة، وشرق مملكة غانة. وقد تميزت تيرقى بأسواقها الحافلة[286]. كما أن تيرقى

تعد إحدى مدن بلاد ونقارة الشهيرة بمعدن الذهب[287]؛ ولهذا نرجح أن تجار تادمكة ارتادوا أسواق تيرقى للحصول على الذهب.

والراجح أن هذه الحركة الدؤوبة لتجار تادمكة كان هدفها توفير السلع المهمة التي تحظى بطلبٍ كبير في أسواق تادمكة، لا سيما أن التجار القادمين من بلاد المغرب الإسلامي كانوا يرتادون أسواق تادمكة قبل دخولهم لبلاد السودان، بل وكان البعض يكتفي بالبيع والشراء فيها دون الحاجة إلى تكملة الطريق نحو بلاد السودان.

وتدلنا المصادر الإباضية على بعض التجار الذين ارتحلوا لتادمكة وتاجروا في أسواقها، وأقدم إشارة في هذا الشأن تتعلق بتاجر من سكان تقيوس من بلاد قصطيلية بإفريقية، يدعى كيداد، والذي كان يسافر إلى تادمكة للتجارة، واشترى من سوقها جارية وتزوجها، وولدت له ابنه أبا يزيد مخلد بن كيداد[288]. ويستدل من هذه الرواية أن تادمكة كانت موجودة كسوق تجاري مهم خلال النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة، فأبو يزيد بن كيداد ولد عام 270هـ/883م. كما نستدل أيضًا أن جنوب تونس ارتبط بتادمكة عبر وارجلان خلال القرن نفسه[289].

وتدلنا كتب النوازل عن مدى أهمية سوق تادمكة في النشاط التجاري، وأن التجار السُنة كانوا يقصدونها للتجارة خلال القرن الرابع للهجرة، بدليل سفر أحد التجار المغاربة للمتاجرة بمال الغير في سوق تادمكة، لكنه توجه من تادمكة إلى بعض المدن التجارية الأخرى ببلاد السودان، على الرغم من أن اتفاقه مع صاحب المال هو الانطلاق نحو تادمكة للتجارة[290]. ويظهر من خلال النازلة أهمية أسواق تادمكة، والتي أدت لوجود وكلاء يتاجرون في مال الغير.

ونستشف من كتب طبقات الإباضية أيضًا استقرار بعض التجار بأسواق تادمكة، وأنهم حققوا ثروة كبيرة من الذهب، ومنهم أبو الربيع سليمان بن موسى

بن أبي هارون (من أهل القرن الرابع للهجرة)، وهو من أهل جبل نفوسة، ويذكر عنه أنه سعى وكسب مالاً كثيرًا من سفره لتادمكة[291].

ومنهم أيضًا أبو تملي الوسياني (كان حيًا في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة)، الذي كان فقيرًا في أول أمره، ثم سافر إلى تادمكة، وتاجر في أسواقها حتى بلغ بها مالاً كثيرًا، وأخذ يرسل كل عام من هذا المال، ليتصدق به على الفقراء ببلاد الجريد. ومنهم أيضًا أبو نوح سعيد بن يخلف (وكان معاصرًا لأبي تملي أيضًا)، الذي سافر إلى تادمكة واشتغل بالتجارة[292]. ويذكر أيضًا أن أبا صالح تبركت الياجراني (المتوفى عام400هـ/1009م)، من أهل وارجلان سافر إلى تادمكة بهدف التجارة في أسواقها[293].

يتضح مما سبق أن تادمكة اشتهرت بأسواقها الحافلة بأنواع التجارة، وهو الأمر الذي أدى إلى ارتحال عدد من التجار المسلمين إليها. والسؤال المطروح هنا: ما أهم السلع التجارية في أسواق تادمكة؟

(جـ) السلع التجارية:

عرفت تادمكة تجارة عدد من السلع المهمة في أسواقها سواء أكانت صادرة أم واردة، وسوف نرصد أهمها فيما يلي.

- الصادرات:

يعد **الذهب** من أهم السلع التي صدرتها تادمكة. وتفيدنا بعض الإشارات الواردة في المصادر الإباضية أن أحد التجار ويدعى تملى الوسياني من أهل القرن الرابع للهجرة كان يرسل كل عام ستة عشر كيساً، في كل كيس خمسمائة دينار ذهبي، أي أنه كان يرسل 8000 دينار ذهبي سنويًا (بما يساوي 34 كيلو جرام)[294]. وتوضح هذه الإشارة كم المكاسب التي كان يحققها البعض من تجارة الذهب.

ويورد الوسياني[295] إشارة مهمة في هذا الشأن تتعلق بأبي محمد عبد **الله** بن محمد السدراتي[296] (من أهل القرن الخامس الهجري) الذي كان يسافر إلى بلاد السودان للدعوة والتجارة، فكان مسافرًا ذات مرة فجعل تجارته صامتًا: أي ذهبًا.

وبالإضافة إلى الذهب تعد سلعة **الرقيق** واحدة من أبرز سلع الصادرات في تادمكة، فالمصادر تؤكد شراء تاجر يدعى كيداد لأمة اسمها سبيكة من سوق تادمكة خلال القرن الثالث للهجرة، وأنه تزوجها[297]. وتبرهن بعض الإشارات الأخرى على أهمية الرقيق في تجارة تادمكة، فلتلك الأهمية كان أهل تادمكة يغيرون على أهل بربرة الذين كانوا يسكنون وسط الصحراء، فكان التادمكيون يسبون من وجدوا منهم[298].

ويرجح أن تجار الإباضية تاجروا في الرقيق المجلوب من بلاد السودان عبر تادمكة، وقاموا بتسويقه في بلاد المغرب نتيجة الأرباح الكبيرة لتلك التجارة، فيروي الوسياني أن تاجرًا كان يرافق أبا محمد عبد **الله** بن محمد السدراتي (من أهل القرن الخامس الهجري) في سفره إلى بلاد السودان، وجعل تجارته كلها في الرقيق[299].

ساعد على رواج تجارة الرقيق السوداني في تلك الفترة، ازدياد الطلب على هذا الرقيق في العصر الفاطمي؛ لتعدد استخداماتهم في الجيش وبعض الأعمال الأخرى، فعندما بنى الفاطميون مدينة زويلة استوطنها سائر الناس من الرعية والسودان[300]. أيضًا استعمل أهل جبل نفوسة الرقيق السوداني في الزراعة والخدمة في المنازل. وكانت مدينتا وارجلان وزويلة من أكبر المراكز الموردة للرقيق السوداني[301]. يقول ابن سعيد عن وارجلان «وهي بلاد نخيل وعبيد، ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية». والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير[302]. ويرجح أن وارجلان كانت تحصل على هذا الرقيق من تادمكة بحكم قرب المسافة بينهما، والمقدرة بخمسين مرحلة.

ومن صادرات تادمكة أيضًا الشب، وهو معدن حجري كان يستخدم من طرف الصباغين لتثبيت الألوان على الثياب، وهو منتج صحراوي كان أحد مناجمه المهمة يقع على الطريق بين تادمكة وغدامس[303].

- **الواردات**:

تأتي **الحبوب الغذائية** في مقدمة السلع التي استوردتها تادمكة، فهي ضرورة حياة، لا سيما أن أرض تادمكة لم تكن صالحة لزراعة الحبوب، فاضطر أهلها لاستيراد الحبوب سواء من الشمال أم من بلاد السودان الغربي في الجنوب والجنوب الغربي[304].

وتثبت نتائج الحفائر صحة ما ذهبت إليه المصادر بشأن استيراد تادمكة للحبوب من بلاد السودان الغربي، إذ عُثر على بذرتين من حبوب الفونيو، يرجع تاريخهما إلى الفترة ما بين عامي 494 - 700هـ/1100 - 1300م[305].

كما استوردت تادمكة الحبوب الغذائية، وعلى رأسها القمح من بلاد المغرب الإسلامي؛ ففي عهد الرستميين (160 - 296هـ/776 - 909م) حمل تجار المغرب الأوسط الحبوب إلى بلاد السودان الغربي خاصة القمح، لا سيما إلى مملكة غانة التي اقتصر طعامها بحسب المصادر على الذرة واللوبيا، ولم تعرف قبائل الصحراء القمح إلا من خلال ما يأتي به التجار من بلاد المغرب، وتذكر المصادر أن الحنطة جلبت إليهم من بلاد وارجلان وغيرها، وأن تجار تاهرت أسهموا بقسط وافر في حمل الحبوب خاصة الحنطة إلى بلاد السودان[306]، كما كان المغاربة يصدرون القمح إلى بلاد السودان؛ لأسعاره الغالية بسبب شدة الطلب عليه، وصعوبة نقله[307]. ويدعم هذه الإشارات المصدرية ما أكدته نتائج الحفائر، من العثور على بعض حبات القمح المستوردة في موقع تادمكة/ السوق[308].

وبالإضافة للحبوب الغذائية تدلنا بعض الإشارات على رواج تجارة الثياب والأقمشة في سوق تادمكة، ولحسن الحظ أن البيئة الصحراوية التي تغمرها الرمال ساعدت على بقاء بعض المواد المكتشفة في موقع الحفر دون تلف، ومنها قطع الأقمشة والمنسوجات التي بقيت محتفظة برونقها في موقع تادمكة، فقد عثر على قطعتين، هما وشاح أو غطاء للرأس من المنسوجات المصنوعة من الحرير الدمشقي في موقع تادمكة/السوق(309)، وقد نسجت إحداهما بخيوط حريرية، والأخرى جمعت بين الخيوط الحريرية والأنسجة القطنية ذات اللون الوردي أو الأحمر، ويرجع تاريخهما إلى الفترة الممتدة من القرن الرابع حتى الثامن للهجرة (310).

تشير الباحثة صوفي ديسروسيرس Sophie Desrosiers إلى أن هذا النوع من المنسوجات كان ينسج في مصر الفاطمية (359-567هـ/969-1171م)(311)؛ ولذا نرجح أن التجار حملوه من مصر إلى تادمكة، لا سيما مع وجود طريق تجاري مأهول يصل بين مصر وتادمكة، فكان يصل إلى جاو القريبة من تادمكة الحرير والمتاع وثياب الخز والكتان من مصر(312). كما أن أهل مدينة تكدا المجاورة لتادمكة كانوا يسافرون إلى مصر ويجلبون منها أزهى الثياب، ومختلف المنسوجات التي كان كبار القوم يتباهون باقتنائها(313).

وتؤكد المصادر المعاصرة لتلك الفترة رواج تجارة الأقمشة والثياب في سوق تادمكة، فعندما جهز تاجر إباضي يدعى أبا صالح الياجراني (من أهل القرن الثالث للهجرة) جملاً لينطلق به من وارجلان إلى تادمكة للتجارة، طلب منه أحد التجار أن يحمل له حملاً من الثياب على هذا الجمل(314)، ويبيعها له في تادمكة، وحدد له صاحب البضاعة السعر الذي يبيع به، فلما وصل الياجراني تادمكة، وأراد بيع الثياب، وجد أن ثمنها قد نقص عن السعر الذي حدده صاحبها نقصانًا قليلاً، فرفض البيع، ورجع بالحمل إلى وارجلان، فكان

حمل الثياب الوحيد الذي يرجع من تادمكة إلى وارجلان[315]. ويدل هذا على أن التجار كانوا يحققون مكاسبهم المرجوة باستثناء هذه الحالة، كما تدل هذه الرواية على شدة الطلب على الثياب، وقد أدى هذا إلى مغالاة التجار في أسعارها كما في الحالة السابقة.

ونستشف من كتب مناقب المتصوفة أهمية الملابس في التجارة العابرة للصحراء، فقد أورد التادلي (المتوفى عام 627هـ/1229م) ترجمة للفقيه أبي الربيع سليمان (المتوفى عام 579هـ/1179م) الذي أعطى أحد التجار بعض الأردية ليبيعها له في بلاد السودان[316].

ويعد **الملح** من أهم الواردات في سوق تادمكة أيضًا، نتيجة أهمية الملح في البيئة الصحراوية وفي المناطق الحارة، ولذا ارتفعت أسعاره بصورة ملحوظة، فقد حدد ابن حوقل سعر حمل الملح في بلاد السودان الغربي بمائتين إلى ثلاثمائة دينار في منتصف القرن الرابع للهجرة[317]. وكانت تادمكة تقع بالقرب من أحد معادن الملح المهمة خلال القرن الخامس للهجرة، وهو معدن توتك الذي كان يبعد عن تادمكة بست مراحلٍ فقط، ومن تادمكة كان يصدر إلى دواخل بلاد السودان ولا سيما إلى مدينة جاو التي تبعد عن توتك بمسيرة خمسة عشر يومًا[318].

وهناك بعض السلع الأخرى التي حملها التجار إلى تادمكة، ومنها **الأحجار شبه الكريمة**؛ فقد عثر على عدد من هذه الأحجار ذات الألوان الزاهية الحمراء والصفراء[319] في موقع الحفر[320]. ولا يُستبعد أن يكون تجار وارجلان وغدامس ونفوسة قد حملوا لبلاد السودان الأحجار التي تشبه العقيق، وذلك لاعتبارين، الأول: وجود معدن لهذه الحجارة يقع بين وارجلان وغدامس، والثاني: ارتفاع أثمان هذه الأحجار ببلاد السودان، وإقبال السودانيين على شرائها، بل إنهم كانوا يفضلونها على الياقوت[321]. فالبكري يشير إلى وجود معدن لحجارة

تشبه العقيق تسمى تاسي النسمت في الطريق بين تادمكة وغدامس، وكانت هذه الحجارة من أشهر ما يقتنيه أهل السودان الغربي، لا سيما أهل غانة، وكانوا يدفعون فيها أثمانًا غالية[322]. وفي ضوء تلك المعطيات نرجح استيراد تادمكة لهذه الأحجار، وأنها أعادت تصديرها إلى مدن بلاد السودان.

ومن تلك السلع التي استوردتها تادمكة أيضًا التمور، بدليل العثور على نواة تمر في موقع الحفر يرجع تاريخها للفترة الممتدة من عام 133- 700هـ/ 750-1300م. وقد كانت بعض بلاد المغرب الإسلامي ذات الصلة بتادمكة من أشهر مصدري التمور[323]، ومنها وارجلان التي صدرت التمور إلى مدن وممالك السودان الغربي، ومنها تادمكة[324]. كما يرجح استيراد تادمكة للتمور من مدينة زويلة خلال القرنين الرابع والخامس؛ إذ اشتهرت زويلة بتصدير التمور إلى بلاد السودان الغربي في عهد أسرة بني الخطاب، هذا بالإضافة إلى حمل تجار أوجلة ووَدان[325] للتمور إلى تلك البلاد[326].

كما استوردت تادمكة أيضًا **الفخار المزجج**، إذ اكتشفت شقف هذا الفخار في موقع الحفر[327] يرجع للفترة الممتدة بين عامي 133-339هـ/750-950م[328]، ولا توجد أدلة تثبت صناعة هذا الفخار محليًا، ومن ثم نرجح استيراده من بلاد المغرب الإسلامي التي اشتهرت بصناعته.

وأدى كثرة الطلب على المنتجات الزجاجية إلى استيراد تادمكة **الأواني الزجاجية والخرز الزجاجي**، بدليل العثور على شظايا لتلك الأواني[329]، وعدد من حبات الخرز الزجاجي في موقع الحفر، وترجع هذه المكتشفات للفترة الممتدة بين عامي 133 - 339هـ/750 - 950م[330].

مما سبق يمكن القول إنه كان بديهيًا أن تتنوع سلع الصادرات والواردات داخل أسواق تادمكة، ونرجح أن تلك السلع استوردت بكميات كبيرة تلبية للطلب المتزايد

عليها ببلاد السودان الغربي، ولأن تادمكة أسهمت بدور نشط في التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها، مستفيدة من موقعها المتميز على هذا الخط التجاري بالغ الأهمية، وانعكس هذا على مظاهر الحياة الاجتماعية لأهلها.

سادسًا - ملامح الحياة الاجتماعية في مملكة تادمكة:

يمكن رصد أبرز ملامح الحياة الاجتماعية في تادمكة من خلال الإشارات القليلة الواردة في المصادر، بالإضافة إلى استقراء النقوش غير الجنائزية وشواهد القبور المكتشفة في موقع تادمكة/السوق، ونعرض في البداية لعناصر السكان، ثم لطبقات المجتمع، والمأكل والملبس، والعمران، وأخيرًا العادات والتقاليد.

(أ)**عناصر السكان**:

وفقًا للمصادر المتاحة، انحدرت الجذور الإثنية لسكان تادمكة من عناصر ثلاثة: البربر، والعرب، والسودان.

وتعد قبائل البربر هي العنصر الأكثر وجودًا في تادمكة[331] خلال فترة الدراسة. بل يشير ابن حوقل إلى أن تادمكة حكمها بربر صنهاجة من بني تانماك، وميز ابن حوقل هذه القبيلة ضمن عدد قليل جدًا من قبائل صنهاجة بالسلطة والنفوذ. لكنه صنفهم ضمن صنهاجة الخلطاء وليس صنهاجة الخلص[332]. ويفهم من كلام ابن حوقل أن بني تانماك وجدوا هنالك عناصر سكانية من السودان، فاختلطوا بهم واستوعبوهم؛ فأصبحوا خلطاء[333]، يختلفون عن صنهاجة الخلص ذوي البشرة البيضاء، نتيجة امتزاجهم بالعناصر السودانية[334].

ويدل أحد شواهد القبور المكتشفة في موقع تادمكة/السوق على اعتماد الطبقة الحاكمة على أبناء جلدتهم من بربر صنهاجة في تسيير شؤون

الحكم والإدارة، فأسندت إليهم الوظائف الإدارية، يُستشف هذا من شاهد قبر لسيدة اسمها شمة أو شَمَ بنت الأمين لسمد بن موردغ، التي توفيت عام 470هـ/ 1077م[335]. ويظهر من اسم صاحبة الشاهد ولقبها أنها تنتمي لقبائل البربر، وأن أباها كان يشغل منصب الأمين خلال القرن الخامس للهجرة. كما يؤكد إسناد الوظائف الإدارية الكبرى للبربر أيضًا شاهد قبر آخر لأحد الأمراء يدعى الأمير غرد بن سمال الذي توفي عام 639هـ/ 1241م[336].

وإذا كان حكام تادمكة ينتسبون إلى بربر صنهاجة، فقد تألف أغلب سكانها من بربر زناتة، نتيجة توافد الكثيرين من أبناء هذه القبيلة على تادمكة للعمل التجاري، فاستقروا بها، فيظهر من التراجم الإباضية أن التجار الذين ارتحلوا لتادمكة من وارجلان، وإقليم الجريد، وجبل نفوسة[337] ينتمون جميعًا لقبيلة زناتة البربرية، ويرجح أنهم بدافع متابعة نشاطهم التجاري كانوا يستقرون لفترات في تادمكة[338]. ويؤكد هذا أيضًا ما ذكره ياقوت الحموي (المتوفى عام 626هـ/1229م) عن مدينة زَكْرَام عاصمة تادمكة التي سكنتها قبائل من زناتة[339].

ويؤكد سُكنى البربر لتادمكة أيضًا وجود عدد من النقوش غير الجنائزية، بالإضافة لشواهد قبور لأشخاص من أصول بربرية، منها نقش كتبه شخص يدعى تَارا بن نُصَرِين بن رَايَان عام 468هـ/1075م[340]. ويحمل شاهد قبر آخر اسم سيدة تدعى كَرَاسْ بنت تِنْمَال، توفيت عام 504هـ/1110م[341]. كما عثر على شاهد قبر لسيدة أخرى تسمى مَرْيَم بنت تِلْسَارُ التي توفيت عام517هـ/1123م[342]، وآخر لسيدة تسمى أَرْهِيرُ بنت بُوكَر، يرجح فارياس أنها توفيت في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[343].

وبالإضافة إلى البربر كان هناك بعض السكان الذين ينتمون لأصولٍ عربية سكنوا تادمكة، وتدلنا عليهم بعض النقوش غير الجنائزية، وشواهد القبور، منها

نقش لشخص يدعى أبو عبد **الله** بن موسى بن عبد **الله**، وهذا النقش مؤرخ بعام 432هـ/1040م [344]. وهناك نقش ثانٍ كتبه شخص يسمى محمد بن عبد **الله** في عام 435هـ/1043م[345]. هذا بالإضافة إلى بعض شواهد القبور، منها شاهد يحمل اسم محمد بن مالك الذي توفي عام 443هـ/1051م[346]. وآخر للفقيه علي بن محمد الفقيه المتوفى عام 484هـ/1091م[347]. ويحمل شاهد قبر آخر اسم سيدة تدعى عَنْزُ أو غَنْزُ بنت مُعَمَّر توفيت في عام 504هـ/1110م[348]. وآخر لسيدة تدعى لِيلَة أو لِيمَة أو لِينَة بنت بُو حَرْشٍ توفيت عام 527هـ/1132م[349]. وهناك نقش كتبه محمد بن سليمان، يرجع لعام 547هـ/1152م[350].

وبالإضافة إلى البربر والعرب الذين سكنوا تادمكة، نرجح أن هناك عناصر سكانية من السودانيين على الرغم من ندرة الإشارات الدالة على هذا، لكن يستبعد خلو تادمكة بأسواقها العامرة بالسلع الثمينة سواء السودانية أم القادمة من بلدان شمال الصحراء من العناصر السودانية. كما أن وصف ابن حوقل لسكان تادمكة بأنهم سودان ذوو بشرة بيضاء، يبرهن على أنهم كانوا خليطًا من القبائل المحلية السودانية والقبائل الصنهاجية الصحراوية[351]. وهذا شبيه بما حدث في مملكة غانة التي اختلطت دماء سكانها المحليين من السوننكي مع الوافدين البيض عن طريق المصاهرة.

من هنا يمكننا القول إن السودانيين ارتادوا أسواق تادمكة، واستقروا هناك لفترات للمشاركة في النشاط التجاري بها، لا سيما أنها عُدت خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة واحداً من أهم المراكز التجارية في الصحراء الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد المغرب الإسلامي. وبالإضافة إلى هذا تؤكد المصادر وجود عدد من الرقيق السوداني ضمن التركيبة السكانية في تادمكة[352] سواء لأغراض التجارة أم لأغراض الاعتماد عليهم في إنجاز بعض الأعمال.

وهكذا، فبينما انحدر حكام تادمكة من بربر صنهاجة، انحدر غالبية سكانها من جماعات مختلفة من البربر لا سيما زناتة، بالإضافة للعرب، والسودان. ويشبه هذا الوضع ما كان قائمًا في مدينة أودغست التي تألف سكانها وفقًا للبكري من خليط من قبائل لواتة، ونفزاوة، ونفوسة، وزناتة، والتجار العرب من إفريقية، في حين كان سادة البلاد من صنهاجة[353]. وبعد أن تعرفنا على عناصر السكان نعرض لطبقات المجتمع.

(ب) طبقات المجتمع:

انقسم مجتمع تادمكة خلال فترة الدراسة إلى ثلاث طبقات، هي: طبقة الحكام، وطبقة العامة، وطبقة الرقيق.

أما طبقة الحكام، فتألفت من الملك وحاشيته، وكبار رجال المملكة من الأمراء والإداريين، ويظهر أن أفراد هذه الطبقة المنتسبة لبربر بني تانماك أفادوا من إشرافهم على تجارة الذهب عبر الصحراء، فأصبحوا يتمتعون بالثراء، وكان فيهم علم وفقه ورياسة[354].

وضمت طبقة العامة شرائح الحرفيين، وعلى رأسهم كبار التجار الذين حققوا الثروات الطائلة، كما يندرج ضمن هذه الطبقة أيضًا شرائح الحرفيين والصناع من الصاغة، وصانعي الجلود، والبناءين، والمشتغلين بتربية الماشية، وغيرهم[355].

ثم يأتي في أسفل السلم الاجتماعي طبقة الرقيق الذين كانوا يؤسرون من المدن المجاورة، ويتم استخدام بعضهم في الحرف المتنوعة، بينما عُرض الغالبية منهم للبيع في سوق تادمكة[356].

(جـ) المأكل والملبس:

فيما يتعلق بالمأكل تشير المصادر إلى اعتماد أهل تادمكة كغيرهم من ساكني الصحراء على لحوم الماشية وألبانها[357]، لا سيما مع ندرة الحبوب الغذائية التي كانوا يستوردونها من الشمال والجنوب، نتيجة للطبيعة الجغرافية التي لم تسمح بقيام زراعة.

وبحسب معطيات نتائج الحفائر، اعتمد التادمكيون على بعض الحبوب الغذائية المستوردة ومنها حبوب الفونيو، والدخن اللؤلؤي، وكان يمكن تحميص هذه الحبوب وطحنها واستخدام دقيقها في صناعة بعض الأطعمة كالعصيدة، وبالتالي تعد محصولاً غذائيًا مهمًا[358]. كما اعتمد أهل تادمكة على حبوب القمح المستوردة في غذائهم ولكن بكميات محدودة[359]. ويرجح أن استخدام القمح كغذاء اقتصر على علية القوم من الطبقة الحاكمة ومن ارتبط بها، نتيجة عدم زراعته في تادمكة، واستيراده بأثمان باهظة. والدليل على أن العامة لم يكن بوسعهم الاعتماد على الحبوب الغذائية المستوردة في غذائهم ما ذكره ابن حوقل بشأن قبائل البربر المقيمة في براري سجلماسة وأودغست وتادمكة ونواحي فزان، بأنهم يغلب عليهم الشقاء، وقوام حياتهم باللبن واللحم[360].

أما بالنسبة للملبس فالمصادر تجمع على غلبة الزي المغربي على لباس أهل تادمكة، فلباسهم نحو زي المغاربة دراريع[361] (جباب)، وعمائم بأحناك. وقد تلثموا كعادة بربر الصحراء[362].

وكان هناك اختلاف بين ملابس الطبقة الحاكمة وملابس الرعية، فالملك كان يلبس الثياب الملونة المستوردة، إذ كان يلبس عمامة حمراء وقميصًا أصفر، وسراويل زرقاء[363]. ويرجح أن نساء هذه الطبقة كانت ترتدي الملابس المستوردة غالية الثمن، بدليل العثور على قطع قماش وغطاء للرأس من الحرير

الدمشقي في موقع تادمكة/السوق[364]. أما العامة؛ فكان لباسهم رجالاً ونساءً من الثياب القطنية المصبوغة[365].

(د) عمران تادمكة:

يظهر من خلال النصوص الجغرافية والتاريخية أن مملكة تادمكة عرفت ازدهارًا كبيرًا بفضل النشاط التجاري خلال الفترة من منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن الخامس للهجرة، ذلك القرن الذي وصلت فيه تادمكة إلى قمة الازدهار والتطور العمراني بشهادة البكري الذي أكد بأنها أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكوا (جاو)[366]، وهو ما يعني التفوق العمراني والحضاري لتادمكة على حساب المدن التجارية المماثلة ببلاد السودان، والتي بدأت تحتل مكانة تادمكة منذ القرن السادس للهجرة، فصاعدًا بدليل شهادة الإدريسي عن غانة خلال هذا القرن بأنها «أصبحت من أكبر مدن بلاد السودان قطرًا وأكثرها خلقًا وأوسعها متجرًا، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها»[367].

ويشهد على تطور عمران تادمكة ما كشفت عنه نتائج التنقيب في موقع تادمكة/السوق؛ إذ كشف عن مبنى غمرته الرمال[368] يرجع للفترة ما بين 133 – 339هـ/750 – 950م مكون من طابق واحد يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار، يضم عددًا من الغرف الصغيرة، وغرفة بها موقد كبير ربما استخدم لأغراض الطهي. وفي أحد جوانب المبنى درج سلالم يمكن من خلالها الصعود لسطح المبنى. وللمبنى مخرجان. وعلى الرغم من أن المبنى بدون أساسات، لكن جدرانه قوية للغاية فهي مبنية بالحجارة المغطاة بالطين المجفف. واستخدم في البناء الطمي الرملي، والطمي الطيني، والرمل الناعم. ويظهر أن المباني التي استخدمت فيها الأحجار كانت لأهل اليسار وعلية القوم[369]. كما اكتشفت بقايا لمبانٍ أخرى استخدم في بنائها الطوب المصنوع من الطين أو من الصلصال

المجفف، ويرجح أنها مباني عامة القوم وترجع للفترة الزمنية الممتدة من 133 – 700هـ/750 – 1300م[370].

يدل على التطور العمراني والحضاري في تادمكة أيضًا أن بعض المباني التي عثر عليها احتوت على مختلف وسائل المعيشة، فقد اكتشفت في تلك المباني غرف تضم مواقد لطهي الطعام ترجع للفترة من 375 – 416هـ/985 – 1025م[371]، كما عثر على مرحاض يرجع لعام 339هـ/950م، وهو عبارة عن حفرة محاطة بالحجارة[372].

وعثر أيضًا على آثار مسجد جامع في الجنوب الشرقي من موقع تادمكة/ السوق[373]، يرجع تاريخه للقرنين الخامس والسادس للهجرة([374]. وقد بلغت مساحة هذا المسجد 23,5 × 15,5 متراً، وهو مقسم لخمسة صفوف موازية للمحراب[375] ولم يكن له مئذنة[376].

وتدل هذه المكتشفات على التطور العمراني والحضري الذي شهدته مملكة تادمكة، وكذلك على وجود تقاليد للبناء اهتمت بتغطية الحاجات المعيشية لساكنيها؛ فماذا عن العادات والتقاليد الاجتماعية ؟

(هـ) **العادات والتقاليد**:

للأسف لا تمدنا المصادر بأية معلومات عن عادات أهل تادمكة وتقاليدهم واحتفالاتهم، لكن باستقراء التقارير الخاصة بنتائج الحفائر يظهر حرص أهل تادمكة على الاحتفالات الدينية، ولا سيما العيدين، إذ حرصوا على صلاة العيدين؛ في ساحات خصصت في الخلاء لهذا الغرض[377].

وفيما يتعلق بالمرأة، تخبرنا المصادر بأن نساء تادمكة فائقات الجمال، وأنه لا يعدل بهن نساء بلدٍ حُسنًا[378]. ولكن نقل البكري دون تحرٍّ للدقة خبرًا عن نساء تادمكة، يتعلق بشيوع الفاحشة لدى هؤلاء النساء[379].

ويظهر أن هذا الخبر جاء عن عدم دراية بطبيعة مجتمع الملثمين الذي منح للمرأة قدرًا أكبر من الحرية الممنوحة للنساء في المجتمعات الإسلامية الأخرى، بل إن المرأة في مجتمعات البربر الملثمين أدت أدوارًا اختص الرجال وحدهم بتأديتها في المجتمعات الأخرى، فلما كانت طبيعة المجتمع الصحراوي قائمة على الترحال وعدم الاستقرار، فقد تطلب الأمر مشاركة جميع أفراد الأسرة في العمل ومصارعة الحياة في الصحراء. وقد أسهمت هذه الطبيعة في منع المرأة الصحراوية من العزلة التي عرفتها مثيلاتها في المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى؛ ومن ثم كان بإمكان المرأة الصحراوية مشاركة الرجال في التجارة واستقبال الضيوف حتى في غياب الزوج، وحضور الجلسات المشتركة بين الرجال والنساء، وكانت تشارك في اتخاذ القرارات المهمة المتعلقة بالقبيلة، حتى قيل إن «هيمنة النساء عادة منتشرة بين الملثمين، وأصيلة فيهم»[(380)]؛ من ثم نفهم لماذا اتهمت المرأة في المجتمعات الصحراوية بالسفور، والاختلاط بالرجال وعدم الحشمة.

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن المسألة فيها تحامل على نساء تادمكة؛ لأنهن يعتنقن المذهب الإباضي الذي وجه الجغرافيون والمؤرخون والرحالة السُّنة كثيرًا من الانتقادات لأتباعه[(381)]. واستدل أصحاب هذا الرأي بالاتهامات بالتحرر وشيوع الزنى في عدد من المدن التي سكنها الإباضية، فحين يحدثنا ابن حوقل عن بعض بربر قسنطينية[(382)] وسجلماسة يشير إلى أن لهم أخلاقاً مكروهة؛ إذ يقدمون أنفسهم للزوار، سواء في ذلك كبير الشأن فيهم أو أقلهم منزلة، وهم لا يتخلون عن هذه الممارسات غير الأخلاقية[(383)]. ومن ذلك أيضًا ما ذكره صاحب الاستبصار عن إباحة الزنى بين أهل جبل نفوسة[(384)]. وقد وسع القزويني (المتوفى عام 682هـ/1283م) هذه الدنية على كل البربر، وقال إنهم يعدون هذا السلوك من باب الكرم وأن رفضه يعد بخلاً[(385)].

وعمومًا يؤخذ على أصحاب تلك المصادر التعميم، والمبالغة في وصف مثل هذه الظواهر السلبية، وفيما يتعلق بنساء تادمكة نرجح أن تلك الرواية نقلها البكري عن أحد التجار الذين استقى معلوماته منهم، وربما يكون هذا التاجر قد شاهد بعض الحالات الفردية لتحرر بعض النساء، فعدها عادة سيئة بين كل نساء تادمكة، وسجل البكري هذه الرواية دون نقدٍ أو تمحيص، لا سيما أنه لم يقم بزيارة هذه المجتمعات بنفسه؛ ومن ثم فمعلوماته لم تقم على المشاهدة.

وإذا كنا نؤكد غلبة المبالغة على هذه الروايات في نصوص الرحالة والجغرافيين والمؤرخين المسلمين، وهي مبالغة نتجت عن التعميم من جانب، والاعتماد على الروايات الشفوية دون نقد وتمحيص من جانب آخر، فإننا لا نتفق مع من ذهب إلى أن هذه الروايات جاءت نتيجة «الاستيهامات الشهوانية التي كانت تحرك رغبة العربي المسلم لنساء عرايا في البلغار وبلاد الصقالبة وبلاد السودان والصين والهند وغيرها»[(386)].

وبعد أن عرضنا لمجمل تاريخ تادمكة وحضارتها خلال الفترة الممتدة من منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن السادس للهجرة، يجدر بنا البحث عن أسباب تراجع دور تادمكة وأفول نجمها.

سابعًا- أسباب خراب مملكة تادمكة وأفول نجمها:

عرفت تادمكة ازدهارها خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة، ولكن بدءًا من القرن السادس تراجع دورها، وبدا حضورها خافتًا في المصادر العربية، فما الأسباب التي أدت إلى ذلك؟

يرجع البعض سبب خراب تادمكة وأفول نجمها **لعوامل سياسية** تمثلت في الغزو، ومنها الغزو الغاني المرابطي عام 476هـ/1083م. وقد سبق مناقشة هذه المسألة. وهناك من أرجع خراب تادمكة إلى غزو ملوك مملكة صنغي

لها، واختلفت الروايات حول ذلك، منها رواية أشارت إلى غزو الملك سني علي (869 – 898هـ/1464 – 1493م) لتادمكة، وأخرى أشارت إلى غزو الأسكيا إسحاق الثاني (996 – 999هـ/1588 – 1591م) لها، وأكدت كلتا الروايتين أن هذا الغزو كان سببًا لخراب تادمكة، وارتحال أهلها عنها، وأنهم صاروا أهل بوادٍ[387]. ونرجح أن هاتين الروايتين جانبهما الصواب لاعتبارات عدة، منها أن الغزو الصنغي المزعوم لم تشر إليه المصادر السودانية المعاصرة التي أرخت لمملكة صنغي، لا سيما عند محمود كعت (المتوفى عام 1002هـ/1593م) الذي كان معاصرًا لتلك الأحداث وشاهدًا عليها، وأرخ لكل ملوك صنغي بما في ذلك غزوات سني علي، والأسكيا إسحاق الثاني، بل وأسهب في الحديث عن كل غزوات سني علي، بما في ذلك غزوه لتنبكت مدينة الطوارق الكبرى؛ وهو الأمر الذي حمل البعض على الظن بأنه خرب كل مدن الطوارق نتيجة عداوته لهم[388]. فلا يعقل أبدًا أن يغفل غزوه لتادمكة أهم مدن الطوارق في الجهة الشرقية للمملكة. وبالإضافة لما سبق فإن الروايتين متأخرتان زمنيًا، فضلاً عن اختفاء ذكر تادمكة من المصادر بعد القرن السادس للهجرة.

والأقرب للصواب أن تادمكة لم يخربها أحد، وإنما غادرها أهلها نتيجة **لعوامل طبيعية واقتصادية**، تمثلت في جفاف موضعها من الصحراء وكثرة جدبه، ونفهم من إحدى النتائج الواردة في تقارير الحفائر محاولة البعض من أهل تادمكة الذين تشبثوا بالإقامة في موطنهم ورفضوا هجرته؛ للتغلب على مشكلة الجفاف ونقص المياه مع نهايات القرن السادس للهجرة، فقاموا بحفر بعض الآبار التي عثر على أدلة بشأنها في موقع الحفر[389].

يؤكد هذا الأمر أيضًا ما ذكره العمري (المتوفى عام749هـ/1348م)، حول جدب تادمكة، وقلة أقواتها، وأنه يصعب الاستقرار بها نتيجة لذلك[390]. وتأتي نتائج الحفائر لتؤكد صحة هذا الخبر مجددًا، إذ تشير إلى انخفاض إعمار موقع

تادمكة وتراجع سُكناه بداية من عام 700هـ/1300م، وازداد هذا الانخفاض بوضوح بدءًا من عام 803هـ/1400م[391].

ومن بين الأسباب الاقتصادية التي أدت إلى خراب تادمكة أيضًا، فقدانها لأهم ميزة ميزتها على الصعيد الاقتصادي، وهي دورها في التجارة عبر الصحراء، إذ يرجع الحضور الخافت لتادمكة في المصادر بدءًا من القرن السادس إلى أنها افتقدت حيويتها التجارية التي تمتعت بها قبل ذلك[392]؛ فانقطع التجار عنها، وهو أمر أكده العمري، والقلقشندي بقولهما عن أهل تادمكة وبربر الصحراء: «ولا يد تمتد لهم إلى كسب»[393]، لا سيما مع قلة ورود الذهب إليها[394].

كما يرجع أسباب تراجع ازدهار تادمكة إلى ظهور محطات تجارية ومراكز حضرية أخرى، لا سيما ولاتة، وتنبكت، وتكدا؛ فكان ظهور مدينة تنبكت على أيدي طوارق مقشرن في نهاية القرن الخامس للهجرة[395]، ثم بروز ولاتة على أيدي قبائل مسوفة الصنهاجية في القرن السادس، ووقوعهما بالقرب من نهر النيجر، وبالقرب من الجهة الشرقية لطرق التجارة عبر الصحراء[396]، قد أوجد بديلاً أكثر حيوية عن تادمكة ذات الطبيعة الصحراوية الجافة، والبعيدة نسبيًا عن مصادر المياه.

ويؤكد السعيدي (المتوفى عام 1067هـ/1656م) أن عمارة مدينة تنبكت كانت خرابًا لما جاورها من المدن، التي هجرها أهلها إلى تنبكت لما صارت ملتقى القوافل التجارية القادمة عبر الطرق الشرقية والغربية[397]، لا سيما أنها تمتعت بميزة أساسية افتقدت إليها تادمكة، وهي توافر المياه؛ إذ تأسست تنبكت على ضفاف نهر النيجر، ولذا اتخذت الممالك الإسلامية بالسودان الغربي من المدن الواقعة على ضفاف نهر النيجر، مراكز لثقلها السياسي والاقتصادي، فلم تُبد اهتمامًا لتادمكة الواقعة في قلب الصحراء، لحساب مدن أخرى كان يسهل

الوصول إليها، سواء عن طريق البر أم البحر وهي مدن نياني، وجاو، وتنبكت. من ثم أصابت ماري بيرنبام حينما ذهبت إلى أن أهمية المحاور والمراكز التجارية كانت تتغير تبعًا لمن يملك السلطة السياسية في بلاد السودان[398]. وعليه، يمكن القول: إن تأسيس تنبكت والأهمية التي أصبحت تحظى بها كان وراء فقد تادمكة كل مقوماتها ومكانتها كمدينة أخيرة على أطراف الصحراء بالنسبة للقوافل المنطلقة من بلاد السودان شمالاً، أو كمحطة وصول أولى للداخلين إلى بلاد السودان.

وبظهور مدينة ولاتة منذ أوائل القرن السادس للهجرة، أصبحت مقصدًا للتجار المغاربة، وموطنًا للقبائل الصنهاجية، لا سيما مسوفة[399].

ولما تأسست مدينة تكدا زاد نشاطها التجاري عمومًا ومع مصر على وجه الخصوص، بالتزامن مع هجرة بعض القبائل –لا سيما مسوفة– إلى تنبكت، أخذت تادمكة في التراجع والأفول، فقرر العديد من سكان تادمكة وعلمائها الارتحال بأسرهم، واستقروا في مدينة تكدا[400].

وهكذا يظهر أن تادمكة تراجع دورها بوضوح خلال القرن السادس للهجرة، فالمصادر لم تذكر أية معلومة عنها، باستثناء الزهري الذي أشار إلى هزيمتها أمام مملكة غانة عام 476هـ/1083م، كما أن معاصره الإدريسي[401] لم يذكر أي شيء يتعلق بتادمكة، بل ذكر أن إقليم سغمارة الذي كان تحت سيطرة تادمكة وفقًا للبكري[402]، أصبح في طاعة ملك غانة. ويظهر أيضًا مما تطرحه المصادر أن تادمكة لم يعد لها أهمية تذكر خلال القرن السابع للهجرة، إذ لم تذكرها المصادر التي أرخت لمملكة مالي، حتى إن ابن بطوطة (المتوفى عام 799هـ/1377م) لم يشر إليها على الرغم من أنه زار كل مدن وقرى مملكة مالي مطلع النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة، وامتدت رحلته من أقصى غربي المملكة إلى أقصى الشرق حتى دخل مدينة تكدا التي تتجاوز حدود تادمكة شرقًا[403].

في ضوء ما سبق يمكن القول: إن تادمكة أصبحت منذ القرن السادس للهجرة مجرد ذكرى للقبائل التي سكنتها وارتبطت بها، وكانت طبيعة عيش هذه القبائل من البربر قد فرضت عليها التنقل والترحال بحثًا عن متنفس جديد لكسب العيش، فكانت تتنقل من مكانٍ إلى آخر يسمح بالرعي لماشيتها، ثم يعودون إلى أطلال مدينتهم التي أصابها الجدب والجفاف حنينًا وشوقًا لها، وبعضهم قرر أن يدفن في أرضها، وهذا يفسر وجود عدد من شواهد قبور لمتوفين خلال القرنين الثامن والتاسع للهجرة[404]. وكان هذا حال عدد من المدن الصحراوية الأخرى التي أصابها الجدب والجفاف، فارتحل عنها أهلها[405]؛ لارتباطهم بعوامل القوة والرخاء الاقتصادي وسبل العيش عبر المحاور المهمة للتجارة عبر الصحراء.

وعمومًا، لم تفقد تادمكة مكانتها التجارية فقط لصالح تنبكت، وتكدا، بل فقدت كثيرًا من مكانتها الدينية، فلم يعد الحجاج المحليون يمرون عليها في ذهابهم أو ينزلون بها عند عودتهم، وإنما أصبحت تنبكت محطة مهمة للحجاج في ذهابهم وإيابهم[406]، فالرحلتان الأشهر للحج في مملكتي مالي وصنغي لم يمرا بتادمكة، إذ انطلقت رحلة حج منسا موسى ملك مالي عام 724هـ/1324م من نياني العاصمة إلى تنبكت عبر مدينتي جني وميمة، ثم إلى وارجلان عبر ولاتة وتغازة، ثم إلى القاهرة عبر غدامس وأوجلة، وسيوة، ثم إلى مكة. وفي العودة رجع عن طريق مدينة جاو إلى نياني العاصمة. أما رحلة حج الأسكيا الحاج محمد الأول في عام 902هـ/1496م فقد اتخذت في ذهابها طريقًا ينطلق من مدينة جاو إلى تكدا، ثم إلى زويلة عبر غات ومرزق، ثم إلى الإسكندرية عبر أوجلة وسيوة، ثم إلى مكة المكرمة. واتخذ الأسكيا محمد الطريق نفسه في الإياب[407].

خـاتمة:

انتهت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج يمكن إبراز أهمها فيما يلي:

أكدت الدراسة أن مملكة تادمكة كانت تقع في الصحراء الكبرى في الجهة الشرقية منها وسط مرتفعات أدرار إيفوغاس، ولم تكن ضمن الحدود السياسية لبلاد السودان الغربي. وثبت من خلال الدراسة أن وقوع تادمكة في وادٍ بين جبلين، جعل أهلها يشبهونها بمكة المكرمة، وكان هذا سبب إطلاق مسمى تادمكة عليها.

برهنت الدراسة على أن الروايات الخاصة بانتشار الإسلام في تادمكة نتيجة حملة عقبة بن نافع الفهري، واستقرار بعض الصحابة بها، لا تستند إلى دليل، ولا يوجد ما يدعمها في المصادر، وتتصل هذه الروايات بحرص التادمكيين على إثبات ارتباطهم بالمشرق الإسلامي.

وعلى هذا أثبتت الدراسة أن انتشار الإسلام في تادمكة كان نتيجة للصلات التجارية مع بلاد المغرب الإسلامي، لا سيما المغربين الأدنى، والأوسط، وكان ارتياد التجار المسلمين: سُنّة، وإباضية لتادمكة قد أسهم بدور فعال في دعم انتشار الإسلام فيها خلال القرن الثاني للهجرة، وترسخ الإسلام بفضل أولئك التجار خلال القرنين الثالث والرابع، نتيجة زيادة نشاطهم التجاري مع تادمكة، ومع بلاد السودان الغربي.

واتساقًا مع هذا، أكدت الدراسة أن الروايات القائلة بانتشار الإسلام في تادمكة نتيجة جهاد المرابطين، وغزوهم غانة، ثم مساعدتهم للأخيرة في غزو تادمكة، وحمل أهلها على الإسلام، ما هي إلا روايات واهية ومضطربة لا تنسجم مع السياق التاريخي سواء في مدن الصحراء وبلاد السودان أم حتى بالنسبة للدولة المرابطية التي لم يكن بوسعها القيام بمثل هذه الغزوات

المزعومة، فضلاً عن قدم انتشار الإسلام في تلك الجهات قبل تأسيس دولة المرابطين نفسها.

ثبت من خلال الدراسة الطابع الإسلامي القوي لتادمكة من خلال ما عُثر عليه من آثار لمصلى العيدين، ومسجد جامع، فضلاً عما حوته شواهد القبور والنقوش غير الجنائزية من دلائل تؤكد مدى تفاعل التادمكيين مع الإسلام وثقافته.

وعلى الصعيد الثقافي بينت الدراسة حرص أهل تادمكة على طلب العلم، والاهتمام بالعلماء بدءًا من الأسرة الحاكمة، وانتهاء بالرعية. كما تبين ارتحال طلاب العلم للمشرق الإسلامي لاستكمال دراستهم للعلوم الدينية، لا سيما الفقه.

أما على الصعيد السياسي، فالدراسة برهنت على استقلال ملوك تادمكة إبان فترة البحث، وأن الازدهار التجاري لمملكتهم مكنهم من الحفاظ على استقلالهم بل والاتجاه نحو توسيع حدود ممتلكاتهم. وتأكد أيضًا عدم تبعية تادمكة لأي من بلاد المغرب الإسلامي أو بلاد السودان الغربي.

أوضحت الدراسة وجود نظام حكم يشبه نظم الحكم السائدة في الممالك الإسلامية المعاصرة لتادمكة، وإن كنا لا نعلم الكثير من تفاصيله ومعالمه. ويأتي على رأس هذا النظام الأسرة الحاكمة، وأمراء البيت الحاكم، بالإضافة إلى بعض الإداريين، مثل: الأمين أو القاضي أو المحتسب.

على الصعيد الاقتصادي أكدت الدراسة تنوع الأنشطة الاقتصادية في تادمكة، بيد أن طبيعة أرضها لم تسمح بقيام نشاط زراعي، وإنما سمحت بوجود نشاط رعوي وفر للأهالي حاجتهم من الألبان واللحوم.

أكدت نتائج الحفائر في موقع تادمكة/السوق ازدهار القطاع الصناعي والحرفي، وخاصة صهر الذهب وضرب العملة الذهبية التي تم تصديرها من تادمكة دون أختام لزيادة الطلب عليها في بلدان الشمال، لكي يتمكن المستوردون من سك العملات الذهبية بسهولة.

برهنت المكتشفات في موقع تادمكة/السوق أيضًا على ازدهار صناعة الزجاج، والصناعات المعدنية، وحرفة البناء، والصناعات الجلدية، وغزل القطن، وغيرها من الحرف والصناعات الأخرى.

أما النشاط التجاري فقد ثبت تميز تادمكة فيه بشقيه الداخلي والخارجي نتيجة موقعها المتميز، كونها آخر مقر سكني صحراوي يقع بالقرب من مدن وممالك السودان الغربي، وكان يمكن من خلاله الانطلاق نحو مصر، وبلاد المغرب الإسلامي، وكان بإمكان القوافل القادمة من تلك الجهات النزول بتادمكة قبل استئناف رحلتها لبلاد السودان الغربي.

وقد مثل الذهب، والرقيق، والشب، أهم صادرات تادمكة، بينما استوردت الحبوب الغذائية، والثياب والأقمشة، والملح، والأحجار شبه الكريمة، والتمور، والفخار المزجج، والأواني الزجاجية، وغيرها. وكل هذه السلع دلت عليها نتائج الحفائر الآثارية.

وعلى الصعيد الاجتماعي انحدر سكان تادمكة من جذور إثنية متنوعة: بربر، وعرب، وسودان، لكن كانت الغلبة العددية لقبائل البربر؛ فأصبح الحكم بأيديهم.

وقد تألف مجتمع تادمكة من طبقات ثلاث: طبقة الحكام، وطبقة العامة، وطبقة الرقيق. وكان هناك تمايز واضح بين هذه الطبقات سواء من حيث الثروة والنفوذ أم من حيث المأكل والملبس والمسكن.

برهنت الدراسة على ازدهار عمران تادمكة، وتفوقها على سواها من المدن والممالك السودانية المجاورة، وأثبتت نتائج الحفائر اتساع عمران تادمكة، وتلبيته لمختلف متطلبات المعيشة من مساكن ومساجد، وأماكن لطهي الطعام، ومراحيض ..إلخ.

وأخيرًا انتهت هذه الدراسة إلى أهم الأسباب التي أدت إلى خراب تادمكة وأفول نجمها منذ نهاية القرن السادس للهجرة، وتأكد أن عامل الغزو لم يكن سببًا في خرابها كما ظن البعض، وإنما كان نتيجة عوامل طبيعية واقتصادية تمثلت في جدب موقع تادمكة، وظهور مدن جديدة ورثت مكانتها؛ فهجرها أهلها إلى تلك المدن التي وفرت سبيلاً ومتنفسًا جديدًا لكسب العيش.

على الرغم من ذلك ظل بعض أبناء تادمكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة يحرصون على زيارة موطنهم بين الحين والآخر؛ حنينًا وشوقًا إليه، وبعضهم دُفن فيه، ودلت على ذلك شواهد قبورهم الموجودة في موقع تادمكة الذي أصبح أثرًا بعد عين.

الـهوامش

(1) انظر الخريطة رقم (1) بالملاحق.

(2) مجهول. **خبر السوق**، تقديم وتعليق: عبد الحميد الهرامة، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 2003، ص21.

(3) جعفري، أحمد أبا الصافي. **اللهجة التواتية الجزائرية**، منشورات الحضارة للنشر والتوزيع والطباعة، الجزائر، 2017، ص280.

(4) تقع جاو أو كاو كاو أو كوكو عند بداية المنحنى الثاني أو الشرقي لنهر النيجر على الطرف الجنوبي للصحراء الكبرى. أصبحت هذه المدينة عاصمة لمملكة صنغي وهي واحدة من أهم الممالك الإسلامية في السودان الغربي خلال القرنين التاسع والعاشر للهجرة. وكانت كوكو تنقسم لمدينتين: مدينة الملك ومدينة المسلمين خلال القرن الخامس للهجرة، انظر: البكري. **المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص 181، 183؛ مراد، حسين سيد. «مملكة صنغاي»، مجلة قراءات إفريقية، العدد الثالث عشر، رجب – رمضان 1433هـ/ يوليو– سبتمبر 2012م، ص16.

(5) راجع تقديم الدكتور عبد الحميد الهرامة لكتاب خبر السوق، ص 15، وانظر هامش رقم 3، ص21.

(6) **كتاب الجغرافيا**، تحرير وتعليق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013، ص84، 85؛ **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**، حققه خوان خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1958، ص 49.

(7) تكدا مدينة تقع في شمال النيجر حاليًا، عدت من أهم المراكز التجارية على الطريق الشرقي لبلاد الهوسا (في نيجيريا حاليًا). وقد اشتهرت هذه المدينة بمنجم النحاس، انظر: ابن بطوطة. **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق وتقديم: عبد الهادي التازي، ج4، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، ص275–277؛ بازينة، عبد الله سالم. **انتشار الإسلام**

في إفريقيا جنوب الصحراء، المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، 2010، ص147، 148.

انظر الخريطة رقم (5) بالملاحق، ص 149.

(8) تيري، جاك. **تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى**، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، 2004، حاشية رقم 3 ص 539، انظر أيضًا ص546.

(9) ذكر الدكتور إبراهيم السلمي اعتمادًا على ما أورده ابن سعيد أن تادمكة تقع جنوبي جبل لونيا على الطرف الغربي منه، وهذا غير صحيح كما أشرنا، انظر «مدينة تادمكة في العصر الإسلامي: من القرن الثاني الهجري إلى القرن الثامن الهجري/القرن الثامن الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 66، 2016، ص291.

(10) يعبر مصطلح السودان الغربي عن المنطقة التي تقع جنوب الصحراء الكبرى والممتدة بين المحيط الأطلنطي غربًا وبحيرة كوري (بحيرة تشاد) شرقًا، وتقع هذه المنطقة شمال خط الاستواء، وجنوب الصحراء الكبرى بين خطي عرض 11 و17° شمالاً، وتمثل هذه المنطقة المجال الموازي لبلاد المغرب، انظر: ابن سعيد. **كتاب الجغرافيا**، ص10؛ محمود، حسن أحمد. **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص137.

(11) ذكر أحد الباحثين أن تادمكة كانت تقبع في السودان الغربي زمن العصور الإسلامية، وهذا غير صحيح، انظر السلمي، إبراهيم بن عطية الله. مرجع سابق، ص289.

وهذا التوطين لموقع تادمكة غير صحيح، فخلال العصر الإسلامي كانت مملكة صحراوية تقع في المنطقة الفاصلة بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي، وتقع أطلالها في الوقت الحالي ضمن حدود دولة مالي في غربي إفريقيا.

(12) انظر صورة رقم (1) لأطلال تادمكة، بالملاحق، ص 151.

(13) انظر الخريطة رقم (5) بالملاحق، ص 149.

(14) Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria, «New Light on the Early Islamic West African Gold Trade: Coin Moulds from Tadmekka», Mali, Antiquity, Vol. 85, 2011, pp.1353, 1356.

(15) Lydon, Ghislaine, **On Trans-Saharan Trails: Islamic Law, Trade Networks, and Cross-cultural Exchange in Nineteenth Century Western Africa,** Cambridge University Press, New York, 2009, p.61.

(16) يوسف، جودت عبد الكريم. **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، ص266-268.

(17) التادمكي، محمد بن ميدي. **سلالم الإخوان إلى مواهب الرحمن: شرح منظومة في أبنية الأفعال**، حققه محمد بن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكمة، المملكة العربية السعودية، 2011، ص27، 30-32.

(18) يوسف، جودت عبد الكريم. مرجع سابق، ص266-268.

(19) فزان إقليم من الأقاليم الصحراوية بالمغرب، وهو ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب، اشتهرت بكثرة نخلها وتمورها، انظر الحموي، ياقوت. **معجم البلدان**، ج4، دار صادر، بيروت، 1977، ص260.

(20) Mauny, R, Tableau Géographique de l'Ouest Africain au Moyen-âge, Dakar, 1961, pp.117119-, Lewick, Tadeusz, "Les Origines et L'islamisation de la Ville de Tâdmakka d'après les Sources Arabes", Outre-Mers Revue d'Histoire, Vol. 242243-, Année 1979, p.163.

(21) Lewick, Tadeusz, Op.cit, pp.163, 164.

(22) التادمكي، محمد بن ميدي. مرجع سابق، ص27، 30-31؛ عثمان، شوقي عبدالقوي. **التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر سلاطين المماليك**، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص91.

(23) السوقي، محمد أحمد الإدريسي. المدارس الأدبية في صحراء الطوارق، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2010، ص30.

(24) البكري. مصدر سابق، ص 181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، د.ت، ص223.

(25) التادمكي، محمد بن ميدي. مرجع سابق، ص31–32.

(26) البكري. مصدر سابق، ص181.

(27) مجهول. كتاب الاستبصار، ص223.

(28) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، حققه: د. إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، 1984، ص128.

(29) **رحلة العبدري**، تحقيق: علي إبراهيم كردي، ط2، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005، ص338، 339.

(30) انظر هامش المحقق حماه الله ولد السالم لكتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي، ص84، 85.

(31) أودغست مدينة من مدن السودان الغربي، وهي مدينة كبيرة آهلة بالسكان، أهلها مسلمون، كانت تعد حاضرة من حواضر غانة، كانت تقع بين بلاد السودان الغربي ومدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى، وتبعد عن القيروان بمائة وعشر مراحل، انظر: البكري. مصدر سابق، ص156 – 158.

(32) **كتاب صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص91.

(33) **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشره وصححه هنري بيريس، الجزائر، 1957، ص19.

(34) Farias, Paulo Fernando de Moraes, Arabic and Tifinagh Inscriptions In: Essouk - Tadmekka, In Nixon, Sam (Editor): Essouk – Tadmekka an Early Islamic Trans-Saharan Market Town, Brill, 2017,p.45.

(35) Insoll, Timothy, The Archaeology of Islam in Sub-Saharan Africa, Cambridge University Press, New York, 2003, p.216.

(36) السوقي، محمد بن أحمد. مرجع سابق، ص31.

(37) انظر الخريطة رقم (3) بالملاحق، ص 147.

(38) هو أحد مشاهير التابعين، دخل المغرب مع عقبة بن نافع الفهري، ويظهر أن هذا الدخول كان في الولاية الثانية لعقبة، وقد تركه عقبة يعلم المصامدة وغيرهم الإسلام. انظر: التادلي. **التشوف إلى رجال التصوف**، حققه: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1984، ص 401؛ المراكشي. **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج5، المطبعة الجديدة، فاس، 1936، ص132؛ الأحمد، محمد علي. **مراحل الفتح الإسلامي في بلاد المغرب العربي دراسة لجهود الفاتحين في نشر الإسلام والتعريب**، الأكاديميون للنشر والتوزيع، الأردن، 2014، ص269.

(39) ابن عذاري. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، حققه كولان وليفي بروفنسال، ج1، ط3، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1983، ص26، 27؛ ابن خلدون. **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، ج4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000، ص237، 238؛ وانظر ج6، ص142، 143.

(40) بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهي آخر حدود إفريقية. وهي مدينة أزلية آثارها ظاهرة، بناؤها بالحجارة، قائمة على البحر، وعملها مسيرة شهر، وبينها وبين مدينة سبتة مسيرة يوم واحد، والمسافة بينها وبين القيروان ألفا ميل، انظر الحموي. مصدر سابق، ج4، ص43.

(41) مدينة صغيرة بالمغرب في الجنوب الغربي، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ إلى الغرب منها، انظر الحموي. مصدر سابق، ج2، ص451.

(42) مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام جهة الجنوب، وهي في منقطع جبل درن، انظر الحموي. مصدر سابق، ج3، ص192.

(43) كورة بالمغرب، مدينتها طرقلة، والمسافة بين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين، انظر الحموي. مصدر سابق، ج3، ص281.

(44) ابن خلدون. مصدر سابق، ج4، ص239؛ الإدريسي، عبد الله حمادي. **قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس: سجلماسة ووريثتها تافيلالت تاريخًا وأمجادًا وجهادًا**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2016، ص156.

(45) ابن الأثير. **الكامل في التاريخ**، ج5، دار صادر، بيروت، 1979، ص185، 191؛ ابن خلدون. مصدر سابق، ج4، ص241.

(46) ابن الأثير. مصدر سابق، ج5، ص185، 191؛ ابن خلدون. مصدر سابق، ج4، ص241، 242؛ مراد، حسين سيد. «دولة أودغست الإسلامية من القرن الثاني إلى الخامس للهجرة/ القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد»، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد 46، 2008، ص111.

(47) مراد، حسين. مرجع سابق ص111.

(48) السوقي، محمد بن أحمد. مرجع سابق، ص29.

(49) حصن يتوسط المسافة بين مدينة سرت وقصور حسان، انظر البكري. مصدر سابق، ص7.

(50) ابن عبد الحكم. **فتوح مصر والمغرب**، حققه عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 1961، ص262.

(51) إقليم واسع من بلاد السودان جنوبي فزان قاعدته مدينة خاوار، الحموي. مصدر سابق، ج4، ص486.

(52) ابن عبد الحكم. مصدر سابق، ص236، 264؛ البدراني، سلمان محمد سلمان. «إمارة صنهاجة في أودغست: دراسة في أوضاعها السياسية»، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العراق، المجلد 20، العدد 8، أغسطس 2013، ص164.

(53) مجهول. **خبر السوق**، ص21، 22.

(54) انظر: مرحبا، محمد محمد المفتي. **فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان**، مخطوطة بمعهد البحوث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، تحت رقم 108، ورقة4؛ الأرواني، محمد محمود. **الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلد تنبكت وشنقيط وأروان في جميع البلدان**، مخطوطة بمركز أحمد بابا التنبكت، مدينة تنبكت، مالي، دون تصنيف، ورقة3.

(55) أمير مغربي غزاه عقبة بن نافع؛ فثار عليه وقتله، ولمزم بسكون جميع حروفه يطلق على بعض الأمكنة في المغرب الأقصى، ابن عذاري. مصدر سابق، ج1، ص28.

(56) ابن عبد الحكم. مصدر سابق، ص267؛ ابن عذاري. مصدر سابق، ج1، ص23–32؛ السوقي، الشيخ محمد العتيق بن الشيخ سعد الدين. **الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين ومن يجاورهم من السوادين**، مخطوطة مرقونة بمكتبة محمد محمود ولد ودادي، نواكشوط، موريتانيا، ص39، 40؛ مراد، حسين سيد. «العرب في مدينة القيروان ودورهم الثقافي حتى نهاية عصر الولاة»، نشرة دورية محكمة، يصدرها معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، العدد42، 1995، ص14.

(57) ابن الأثير. مصدر سابق، ج4، ص108–109؛ مراد، حسين. «العرب في مدينة القيروان»، ص17، 18.

(58) ابن عبد الحكم. مصدر سابق، ص267؛ ابن عذاري. مصدر سابق، ج1، ص23–32؛ الكُنتي، سيدي محمد الخليفة. **الرسالة الغَلَّاوية المسماة مُبردة الغليل وشافية الغل من صدور جميع المؤمنين خصوصًا بني محمد غل**، حققه: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013، ص35.

(59) الناصري. **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ص39؛ السوقي، الشيخ محمد العتيق. مصدر سابق، ص41.

(60) أبو محذورة المؤذن القرشي الجمحي، اختلف في اسمه، فقيل: سمرة بن مِعْيَر،

وقيل: معير بن مُحَيْرِيزْ، وقيل أوس بن معير بن لُوزَان. كان مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة، ابن سعد. **كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق علي محمد عمر، ج6، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001، ص113–118؛ ابن عبد البر. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، حققه محمد علي البجاوي، المجلد الرابع، دار الجيل، بيروت، 1992، ص1751، 1752.

(61) ابن سعد. مصدر سابق، ج6، ص113–118؛ ابن عبد البر. مصدر سابق، المجلد الرابع، ص1752؛ ابن الأثير. **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار ابن حزم، بيروت– لبنان، 2012، ص 1394؛ السوقي، الشيخ محمد العتيق. مصدر سابق، ص41.

(62) ابن خلدون. مصدر سابق، ج4، ص237–238.

(63) السوقي، الشيخ محمد العتيق. مصدر سابق، ص41.

(64) مراد، حسين سيد. مرجع سابق، ص5.

(65) صنهاجة الصحراء مصطلح يقصد به مجموعة القبائل الصنهاجية الرحل التي سكنت الصحراء الإفريقية على امتدادها الجغرافي من وادي النيل شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، وتميزت بلبس اللثام، ويطلق عليهم صنهاجة الصحراء، أو صنهاجة اللثام، تمييزًا لهم عن الصنهاجيين المستقرين في الشمال بمنطقة الجبال والأطلس خاصة جبال الأوراس، الذين أطلق عليهم صنهاجة الجبال، انظر هربك، إيفان، ودُفيس، جان. **المرابطون**، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث: إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، ط2، إشراف محمد الفاسي وإيفان هربك، اليونسكو، 1997، ص374؛ القاسمي، هاشم العلوي. **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، ج2، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1995، ص101.

(66) الشكري، أحمد. **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي**، إصدارات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999، ص86، 87.

(67) الشيخلي، صباح إبراهيم. **النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن 5هـ/11م**، منشورات معهد الدراسات والبحوث العربية، بغداد، 1984، ص52.

(68) تميم، أبو العرب. **طبقات علماء إفريقية وتونس**، حققه علي الشابي ونعيم حسن، ط2، الدار التونسية للنشر، 1985، ص 198؛ المالكي. **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**، تحقيق بشير البكوش، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص182؛ مراد، حسين سيد. **الصلات بين المغرب والسودان الغربي (خلال القرن 2-6هـ/8-12م)**، ضمن أبحاث مؤتمر الإسلام في إفريقيا، الكتاب الحادي عشر، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ليبيا وجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، 2006، ص377.

(69) تاهرت مدينة بيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه، وبها الإباضية، الاصطخري. **كتاب مسالك الممالك**، مطبعة بريل، ليدن، 1937، ص39.

(70) وارجلان بلد خصيب كثير النخل والبساتين في الصحراء مما يلي إفريقية، وهي بلاد كثيرة الزرع والضرع والبساتين، بالإضافة إلى العبيد. ومنها يدخل إلى المغرب الأوسط وإفريقية. وتعد محور الطريق والسفر إلى بلاد السودان، ينظر مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص224؛ ابن سعيد. **كتاب الجغرافيا**، ص126.

(71) غدامس، بفتح أوله، وبضمه أيضًا، مدينة للبربر جنوبي المغرب، اشتهرت بدباغة الجلود التي نسبت إليها، فسميت بالجلود الغدامسية، انظر: الحموي. مصدر سابق، ج4، ص187.

(72) مدينة كبيرة بجبل نفوسة من ناحية إفريقية، لها أسواق، وسكنها كثير من اليهود، انظر: الحموي. مصدر سابق، ج2، ص92.

(73) نَفُوسَّة، بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة: جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال في أقل من ذلك، انظر: الحموي. مصدر سابق، ج5، ص296.

(74) الشماخي. **كتاب السير**، تحقيق محمد حسن، ج3، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، د.ت، ص123، 124.

(75) ذكر الإدريسي أن التجار المغاربة كانوا يدخلون بلاد السودان بأعداد من الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع»، انظر: **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**، ص42.

(76) زكي، عبد الرحمن. **الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا**، مجموعة محاضرات ألقيت في معهد الدراسات الإسلامية، مطبعة يوسف، القاهرة ، د.ت، ص47، 48.

ومن هذه العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين الدولة الرستمية وبلاد السودان، وخاصة مدينة كوكو «جاو» أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب عقد مع ملك كوكو علاقات مودة فأهدى إلى هذا الملك هدية نفيسة ليوثق الصداقة بينهما، ويشكره على ما يجده تجار بلاده من حسن المعاملة، وانتشر الإسلام في هذه المدينة بفضل النشاط التجاري، انظر الحموي، ياقوت. مصدر سابق، ص301.

(77) المالكي. مصدر سابق، ج1، ص182، ج2، ص102.

(78) Lewis, L .M . Islam in Tropical Africa, Oxford,1960, p.20.

(79) مراد، حسين سيد. **الصلات**، ص375، 376.

(80) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الإسكندري، المعروف بابن المواز، من فقهاء المالكية المشهورين في القرن الثالث الهجري، تفقه بابن الماجشون، وابن عبد الحكم. كان راسخًا في الفقه والفتيا، ألف الكتاب الكبير المعروف بالموازية، وهو من أجل الكتب التي ألفها المالكيون، انظر: ابن فرحون. **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، حققه محمد الأحمدي أبو النور، ج2، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، د.ت، ص166، 167؛ ابن مخلوف. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص102.

(81) انفرد القاضي عياض بهذا الخبر، انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق عبد القادر الصحراوي، ج4، ط2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1983، ص169. وجاء الخبر نفسه عند ابن فرحون، لكنه قال «قوم من أهل مكة»، وليس قوم من أهل تادمكة» كما جاء عند عياض، انظر ابن فرحون. مصدر سابق، ج2، ص167؛ السوقي، الشيخ محمد العتيق. مصدر سابق، ص38.

(82) تَقْيُوسُ بالفتح ثم السكون، وياء مضمومة، وواو ساكنة، وسين مهملة: مدينة بإفريقية قريبة من بلدة تَوْزَر، انظر: الحموي. مصدر سابق، ج2، ص37.

(83) إقليم في تونس الوسطى، وهو أرض صخرية ممتدة يحدها من الشمال شط غرسة ومن الجنوب شط الجريد. ولا تطابق الجريد الحالية تمام المطابقة الإقليم الذي عرفه الجغرافيون والمؤرخون المسلمون باسم بلاد الجريد أو بلاد قسطيلية، انظر: الحموي. مصدر سابق، ج4، ص348؛ انظر هامش رقم (4) لمحقق كتاب القلقشندي. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، حققه محمد حسين شمس الدين وآخرون، ج7، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012، ص403.

(84) أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي اليفرني النكاري، صاحب الثورة على الفاطميين سنة 333هـ/944م، ولد بالسودان حيث كان أبوه تاجرًا، وتعلم القرآن بتوزر، ولما ظهر الفاطميون على الساحة السياسية استطاع أبو يزيد تهديد حركتهم بالزوال، وقد قتل سنة 336هـ. ينظر: ابن الأثير. **الكامل في التاريخ**، ج8، ص422؛ ابن خلدون. مصدر سابق، ج7، ص13.

(85) ابن حماد. **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، حققه التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، 1401هـ، ص53؛ المقريزي. **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا**، حققه جمال الدين الشيال ومحمد حلمي، ج1، ط2، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1996، ص75؛ الطيبي، أمين توفيق. «الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى»، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثانية، العدد الثاني، يوليو، 1980، ص262.

ليس صحيحًا ما ذكره الدكتور إبراهيم السلمي أن أبا يزيد مخلد بن كيداد فر إلى تادمكة عندما فشلت ثورته ضد الفاطميين، انظر: مدينة تادمكة، ص295. والصحيح أن أبا يزيد فر إلى قلعة كتامة واحتمى بها وحاصره الخليفة الفاطمي المنصور (334-341هـ/945-952م) حتى تمكن من قتله عام 336هـ/947م، المقريزي. مصدر سابق، ج1، ص85.

(86) ليفيتسيكي، تاديوش. «دولة تاهرت الشمال إفريقية وعلاقاتها مع السودان الغربي في نهاية القرن الثامن وإلى القرن التاسع الميلادي»، ترجمة وتعليق عبدالقادر مباركية، دورية كان التاريخية، السنة العاشرة، العدد الخامس والثلاثون، مارس، 2017، ص168.

(87) الونشريسي. **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ج9، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، ص116؛ مراد، حسين سيد. الصلات، ص380. انظر أيضًا:

Tibi, Amin. “Impact of Islam on Medieval Ghana and Mali (10th-14th Century)”, Magazine of the Faculty of the Islamic Call, First Year, Issue. 1, 19841985-, p.237.

(88) السلمي، إبراهيم. مرجع سابق، ص294.

(89) ولد السالم، حماه الله. دراسات **في تاريخ العرب الحديث مراجعات نقدية**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2018، ص 110؛ السلمي، إبراهيم. مرجع سابق، ص294؛ الفاسي، محمد، هربك، إيفان. **مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا**، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث: إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، ط2، بإشراف م. الفاسي، إ. هربك، اليونسكو، 1997، ص90.

(90) السلمي، إبراهيم. مرجع سابق، ص294.

(91) سنتناول هذا بالتفصيل عند الحديث عن النشاط التجاري في تادمكة.

(92) الونشريسي. مصد سابق، ج9، ص116؛ مراد، حسين سيد. الصلات، ص380.

(93) الحموي، ياقوت. مصدر سابق، ص301.

(94) عياض. مصدر سابق، ج4، ص169.

(95) **صورة الأرض**، ص102.

(96) التيفيناغ أو التماشق لغة تستخدمها قبائل الطوارق، يرجع البعض وجودها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام، يشهد على ذلك الكتابات والنقوش المكتشفة في الصحراء الكبرى، وشمال إفريقيا، ولذا عدها البعض من بين اللغات السامية، وهي امتداد لصيغ اللغة العربية، ولها أصول عربية. انظر: الأنصاري، عمر. **الرجال الزرق: الطوارق الأسطورة والواقع**، دار الساقي، بيروت، 2017، ص24.

(97) Nixon, Sam. «Tadmekka Archéologie d'une Ville Caravanière des Premiers Temps du Commerce Transsaharien», Histoire et archéologie du Sahel ancien: nouveaux regards, nouveaux chantiers, Vol.4, 2013, p.12.

(98) Farias, Paulo, Fernando de Moraes. **Essouk Arabic Non-Funerary Inscriptions,** New (Previously Unpublished) Series, In Nixon, Sam (Editor): Essouk- Tadmekka an Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017, p.299.

(99) Farias, Paulo Fernando de Moraes. "The Oldest Extant Writing of West Africa: Medieval Epigraphs from Issuk, Saney and Egef-n-Tawaqqast (Mali)", Journal des Africanistes, Vol.60, Numéro.2, (Année 1990), pp.95,96.

(100) انظر صورة هذا النقش، الصورة رقم (17)، بالملاحق.

(101) Ibid, p.94, Farias, Paulo Fernando de Moraes. **Arabic Medieval Inscriptions from the Republic of Mali: Epigraphy, Chronicles, and Songhay- Tuareg History,** Published for the British Academy by Oxford University Press, New York, 2003, p.89.

(102) غانة بفتح الغين المعجمة، وألف، ثم نون مفتوحة، وهاء في آخرها. هي بلد بأرض السودان، وليست هي غانا الحديثة التي تحمل هذا الاسم حاليًا؛ إذ إن غانا الحديثة كانت تسمى ساحل الذهب، ثم سميت باسم غانا تيمنًا؛ فهي تقع على بعد نحو ألف ميل جنوبي غانة القديمة. أما موقع غانة القديمة فهو محل خلاف، وقد ورد في المصادر أنها مدينتان على ضفتي نيلها، إحداهما يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار، انظر: البكري. المغرب، ص 175.

(103) **كتاب الجغرافية**، حققه: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص125، 126.

Lewick, Tadeusz. Op.cit, p.166.

(104) كتاب الجغرافية، ص125.

Lewick, Tadeusz. Op.cit, pp.166, 167.

يقول الزهري عن أهل غانة إنهم ظلوا متمسكين بالكفر حتى عام 469هـ، وذلك عند خروج يحيى بن أبي بكر أمير مسوفة، وأسلموا في مدة لمتونة وحسن إسلامهم، انظر: **كتاب الجغرافية**، ص125.

(105) من مدن السودان الغربي، تقع على نهر السنغال، والمسافة بينها وبين مدينة غانة بلغت مسيرة عشرين يومًا، انظر: البكري. المغرب، ص172.

(106) **المغرب**، ص172.

Conrad, David & Fisher, Humphrey. “The Conquest that Never was: Ghana and the Almoravids 1076 the External Arabic Sources”, History in Africa, Vol.9, 1982, pp.26, 27.

(107) **كتاب الجغرافية**، ص125.

(108) **المغرب**، ص175.

(109) المصدر السابق، ص181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص223.

(110) انظر الخريطة رقم (4) لطرق الحج المارة بتادمكة، بالملاحق، ص148.

(111) Nixon, Sam. **A Longing for Mecca The Trans-Saharan Hajj and**

the Caravan Towns of West Africa, In Porter, Venetia and Saif, Liana: “The Hajj Collected Essays“, The Trustees of the British Museum, London, 2013, p.65.

(112) ولد الحسين، الناني. **صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط**، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2007، ص21.

(113) Nixon, Sam. **A Longing for Mecca,** p.68.

(114) تعد تنبكت واحدة من أهم مدن السودان الغربي، تأسست على أيدي طوارق مقشرن في القرن الخامس للهجرة، وكان أكيل أكملول ذلك الأمير الذي كان ينتمي إلى الملثمين من مسوفة حاكمًا لها، ومنذ ذلك الوقت كان الطوارق حكام تنبكت حتى عام 874هـ/1469م، انظر: الوزان. **وصف إفريقيا**، ترجمه إلى العربية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص539؛ السعيدي. **ملوك السودان أهل سُغي وقصصهم وأخبارهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك**، تحقيق: هوداس وبنوا، مطبعة أنجي، باريس، 1898، ص65.

(115) صنغي هي آخر الممالك الإسلامية الثلاث التي قامت في بلاد السودان الغربي بعد مملكتي غانة، ومالي، وقد بلغت أوج ازدهارها وشهرتها خلال القرنين التاسع والعاشر للهجرة. أسس هذه المملكة شعب الصنغي الذي ينسب لقبيلة سودانية عُرفت بهذا الاسم، قامت الإمارة الأولى لصنغي في إقليم دندي الذي يقع على نهر النيجر، وكان أول حكامها ملك اسمه «زا الأيمن»، انظر: السعيدي. مصدر سابق، ص3، 4؛ مراد. حسين سيد. مملكة صنغاي، ص12.

(116) تعد أسرة أقيت من أشهر الأسر الصنهاجية التي استوطنت بلاد السودان الغربي، وذاع صيتها في عصر مملكة صنغي الإسلامية خلال القرنين التاسع والعاشر للهجرة، وتولى أفرادها الخطط الدينية المهمة في مدينة تنبكت، كالقضاء والفتيا والإمامة والخطابة، للمزيد انظر أباظة، سوزي. «عائلة أقيت

وإسهاماتها الثقافية في تنبكت»، مجلة الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، العدد 26، 2004، ص147–150.

(117) السوقي، محمد بن أحمد. مرجع سابق، ص33.

(118) انظر: الصورة رقم (2) لمصلى العيدين، بالملاحق، ص151.

(119) انظر: الصورة رقم (3) لتخطيط المسجد الجامع، بالملاحق، ص151.

(120) Insoll, Timothy. Op.cit, p.216.

(121) Nixon, Sam. **Excavations in the Mosque Quarter (Unit Ek-A)**, In Nixon, Sam (Editor): Essouk- Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017, p.58.

(122) Nixon, Sam. A Longing for Mecca, p.68.

(123) Ibid, pp.68, 69.

انظر: صورة لهذه النقوش، الصورة رقم (19)، الملاحق ص159.

(124) Farias. Essouk Arabic Non-Funerary Inscriptions, p.299.

(125) Farias. The Oldest Extant Writing, p.94, Farias. Arabic Medieval Inscriptions, p.89.

(126) انظر: صورة هذا الشاهد، الصورة رقم (18)، ص158.

(127) Farias. Arabic Medieval Inscriptions, p.128.

(128) Ibid, p.142.

(129) Ibid, p.91.

(130) Farias. Essouk Arabic Non-Funerary Inscriptions, pp.299300-.

(131) Farias. Arabic Medieval Inscriptions, pp.128, 129.

(132) Ibid, p.129.

(133) Ibid, p.145.

(134) Ibid, p.133.

(135) Ibid, p.128.

(136) Ibid, pp.106, 107.

(137) Ibid, p.101.

(138) Ibid, p.107.

(139) Ibid, p.108.

(140) Ibid, p.142.

(141) Ibid, p.102.

(142) Ibid, p.104.

(143) Ibid, p.105.

(144) Ibid, pp.102, 104.

(145) Ibid, pp.91, 92.

(146) Ibid, p.146.

(147) Ibid, p.146.

(148) Ibid, p.85.

(149) **ترتيب المدارك**، ج4، ص 169؛ السوقي، الشيخ محمد العتيق. مصدر سابق، ص38.

(150) **صورة الأرض**، ص102.

Tibi, Amin. Op.cit, p.237.

(151) Farias. The Oldest Extant Writing, pp.102, 103.

(152) Ibid, p.153.

(153) Ibid, pp.153, 154.

(154) ابن حوقل. مصدر سابق، ص102.

Tibi, Amin. Op.cit, p.237.

(155) الدرجيني. **طبقات المشائخ بالمغرب**، حققه إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، الجزائر، 1974، ص367.

(156) ليس أدل على المكاسب المادية التي كان يحققها علماء وارجلان من سفرهم لبلاد السودان، من تلك الرواية التي أوردها الوسياني عن الشيخ أبي موسى هارون بن أبي عمران موسى بن سدرين، كان قد مر على الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان، فطلب منه بعض التلاميذ بوارجلان أن يبقى معهم يدرس لهم في حلقته، وقدموا له مائة دينار فأبى أخذها لأنه كان يريد السفر إلى غانة، وذلك في نهاية القرن الثالث للهجرة، وبداية القرن الرابع، ثم سافر إلى غانة، ومنها إلى مدينة غيارو المشهورة بالذهب. الوسياني. **سير الوسياني**، حققه: عمر بن لقمان بو عصبانة، ج1، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2009، ص223؛ وانظر ج2، ص566، 567.

(157) المصدر السابق، ج1، ص 96؛ الشماخي. مصدر سابق، ص393، 394؛ باباعمي، محمد بن موسى، وبحاز، إبراهيم، وآخرون. **معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر**، قسم المغرب الإسلامي، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص105، 106؛ ولد السالم، حماه الله. صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ص23.

(158) الدرجيني. مصدر سابق، ص378.

(159) تعد هذه الإشارة من الإشارات النادرة حول إمكانية السفر بالخيول في الصحراء، ويرى البعض عدم استحالة هذا الأمر، وإمكانية تكيف الحصان مع الصحراء، فمن الممكن تعويده على الشرب مرة كل يومين. وهناك إشارة أخرى تتعلق بابن بطوطة الذي قطع الطريق من سجلماسة إلى مالي على ظهر حصان. كما كانت هناك تجارة مربحة في الخيول بين المغرب والسودان الغربي في القرنين التاسع والعاشر للهجرة/ الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، وكانت هذه الخيول تصل مع القوافل لبلاد السودان، وقدرت قيمة الحصان بخمسة عشر إلى عشرين عبدًا. تيري، جاك. مرجع سابق، ص125، 126.

(160) الوسياني: مصدر سابق، ج1، ص223؛ ج2، ص553؛ محمد بن موسى باباعمي وإبراهيم بحاز وآخرون: مرجع سابق، ج2، ص187.

(161) **طبقات المشائخ بالمغرب**، ص367.

(162) Farias. **The Oldest Extant Writing,** pp.102, 103.

(163) الجوهر الثمين، ص136.

(164) Levtzion, Nehmia. «Ibn-Hawqal, the Cheque, and Awdaghost», The Journal of African History, Vol. 9, No. 2, 1968, p.228.

ولد الحسين، الناني. مرجع سابق، ص21.

(165) **صورة الأرض**، ص102 .

(166) Farias. **Arabic and Tifinagh Inscriptions,** p.47.

(167) Farias. **Arabic Medieval Inscriptions,** p.133.

(168) ابن عبدون. **رسالة في القضاء والحسبة**، حققه ليفي بروفنسال، منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، القاهرة، 1955، الصفحات: 39، 40، 44، 53؛ ابن عبد الرؤوف. رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، حققه ليفي بروفنسال، منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، القاهرة، 1955، ص93؛ المراكشي. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، حققه محمد سعيد العريان، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، د.ت، ص362؛ ابن سعيد. المُغرب في حُلَى المَغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ج1، دار المعارف، مصر، 1964، ص185.

(169) **المُغرب**، ص 179.

(170) Farias. **Arabic and Tifinagh Inscriptions,** p.47.

(171) Farias. **Arabic Medieval Inscriptions,** p.136.

(**172**) **صورة الأرض**، ص101؛ **كتاب المسالك والممالك**، حققه وقدم له: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج2، الدار العربية للكتاب، 1992، ص880.

(173) انظر: ابن خرداذبة. **المسالك والممالك**، تحقيق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014، ص51؛ مجهول (ألفه عام 372هـ/982م). **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، حققه وترجمه عن الفارسية: السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2000، ص204، 205.

(174) تقع مدينة زاغة على نهر النيجر، وقد زارها ابن بطوطة مطلع النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وكانت في طاعة ملك مالي وقتئذٍ. وقال ابن بطوطة عن أهلها إنهم «قدماء في الإسلام، ولهم ديانة وطلب للعلم»، انظر: **تحفة النظار**، ج4، ص250.

(175) انظر: السلمي، إبراهيم. مرجع سابق، ص295؛ الدالي، الهادي المبروك. **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999، ص315.

(176) **المغرب**، ص181؛ ليفيتسكي، تاديوز. **دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب**، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث: إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، ط2، إشراف محمد الفاسي وإيفان هربك، اليونسكو، 1997، ص340.

(177) يرجح أحد الباحثين أن بربر سغمارة هم أنفسهم الطوارق الأسِكمارين، الذين يعيش جزء منهم حتى الآن عيشة البدو في مرتفعات أدرار الإيفوغاس، انظر: ليفيتسكي، تاديوز. دور الصحراء الكبرى، ص340.

(178) ابن خلدون. مصدر سابق، ج6، ص269.

(179) **معجم البلدان**، ج3، ص145.

(180) الزهري. مصدر سابق، ص125، 126.

(181) Gomez, Michael. A. **African Dominion: A New History of Empire in Early and Medieval West Africa,** Princeton University Press, United Kingdom, 2018, p.26.

ممن أخذ برواية الغزو الغاني المرابطي لتادمكة، السلمي، إبراهيم بن عطية **الله**. مرجع سابق، ص291، 295؛ بلحسين، سعاد. **العلاقات المغربية الإفريقية: الحضور المرابطي في السودان الغربي نموذجًا**، مجلة أمل، المجلد 25، العدد 49، المملكة المغربية، 2017، ص8، 9.

(182) السلمي، إبراهيم بن عطية **الله**. مرجع سابق، ص291، 295؛ بلحسين سعاد. مرجع سابق، ص8، 9.

(183) من أمثلة ما قدمه الزهري من أخبار غير صحيحة عن بلاد السودان الغربي، اعتباره مدينة جاو إحدى مدن الحبشة، رغم أنها في السودان الشرقي، وليس الغربي، كما ذكر أن غانة أسلمت قبل التكرور، وهذا غير صحيح، وأطلق على مملكة غانة اسم جناوة، ولهذا لا يمكن الوثوق بروايات الزهري عن المدن والمراكز التجارية جنوب الصحراء الكبرى، انظر: **كتاب الجغرافية**، ص124، 125.

(184) الشكري، أحمد. «صفحات من تاريخ ولاتة»، مجلة قراءات إفريقية، العدد 34، محرم–ربيع الأول 1439هـ/ أكتوبر–ديسمبر 2017م، ص16.

(185) **وصف إفريقيا الشمالية**، ص9 .

(186) مدينة تقع على نهر النيجر في الطريق بين غانة وتادمكة، وهي آخر حدود غانة، وبينهما ثلاث مراحل، انظر: البكري. مصدر سابق، ص181.

(187) **المغرب**، ص181.

(188) المصدر السابق، ص181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص223، 224.

(189) ولاتة أو إيولاتن: تقع على بعد 250 ميلاً من تنبكت إلى جهة الغرب، بالقرب من نهر النيجر، وقد سكنتها قبائل البربر مثل قبائل مسوفة، والطوارق، ابن بطوطة. مصدر سابق، ج4، ص262–265؛ انظر أيضًا:

Hunwick, John. “Ahmed Baba and The Moroccan Invasion of the Sudan (1591)”, Journal of The Historical Society of Nigeria, No. II, Ibadan, 1962, P. 312.

(190) الشكري، أحمد. **الإسلام والمجتمع السوداني**، ص119.

(191) أنشئت مملكة مالي على يد شعب الماندنجو، وكان أول ملوكها سندياتا (628 – 653هـ/1230–1255م) الذي حارب الصوصو وانتصر عليهم، فكان هو المؤسس الحقيقي للمملكة. غير أن منسا موسى (712–737هـ/ 1312–1337م) يعد من أشهر ملوك مالي قاطبة، وفي عهده امتدت رقعة مالي بين نهر السنغال في الغرب وبحيرة تشاد في الشرق وشملت خمسة أقاليم هي: مالي، وغانة، وكوكو، وصوصو، وتكرور (السنغال)، انظر ابن خلدون. مصدر سابق، ج6، ص266 – 268.

(192) معدن تاتنتال أو تغازة بينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يومًا، وتحفر الأرض على الملح كما تحفر على سائر المعادن، ويقطع كما تقطع الحجارة. ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة، وغانة، وسائر السودان، انظر: البكري. مصدر سابق، ص171؛ مجهول: **كتاب الاستبصار**، ص214.

(193) الشكري، أحمد. الإسلام والمجتمع السوداني، ص118.

(194) البكري. المغرب، ص168.

(195) صورة الأرض، ص84.

(196) المغرب، ص181؛ كتاب الاستبصار، ص223.

(197) Nixon, Sam & Murray, Mary and Fuller, Dorian. «Plant use at an Early Islamic Merchant Town in the West African Sahel: the Archaeobotany of Essouk-Tadmakka (Mali)», Veget Hist Archaeobot, Vol.20, 2011, p.233.

(198) Insoll, Timothy. **Trans-Saharan Trade and Islam,** In Linehan, Peter and Others (Eds): The Medieval World, Rutledge, 2018, p.553, Insoll, Timothy. **The Archaeology of Islamisation in Sub-Saharn Africa,** In Peacock, A (Editor): Islamisation Comparative Perspectives from History, Edinburgh University Press, UK, 2017, p.256.

(199) Nixon, Sam & Murray, Mary and Fuller, Dorian. Op.cit, pp. 226 - 228.

(200) Ibid, pp.226 - 228.

(201) السلمي، إبراهيم. مرجع سابق، ص298.

(202) Nixon, Sam & Murray, Mary and Fuller, Dorian. Op.cit, p.234.

(203) انظر الخريطة رقم (2) بالملاحق، ص146.

(204) ابن حوقل. مصدر سابق، ص84؛ البكري. **المغرب**، ص181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص223؛ العمري. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين، ج4، مركز زايد للتراث والتاريخ، أبو ظبي، 2001، ص81؛ القلقشندي. مصدر سابق، ج5، ص204.

(205) الوسياني. مصدر سابق، ج2، الصفحات: 799، 803، 804.

(206) Nixon, Sam. **Trans-Saharan Gold Trade in Pre-Modern Times Available Evidence and Research Agendas,** In: Leitch, Mattingly and Others (Editors): Trade in the Ancient Sahara and Beyond, Cambridge University Press, USA, 2017, p.169.

(207) البكري. **المغرب**، ص183.

(208) المصدر السابق، ص181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص223؛ الحميري. مصدر سابق، ص128، 129.

(209) **وصف إفريقيا**، ج2، ص163، 167.

(210) انظر الخريطة رقم (6) لمراكز ضرب العملة في الصحراء وبلاد المغرب، بالملاحق، ص150.

(211) Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1364.

(212) انظر الصورتين رقم (12)، ورقم (13) لبقايا قطع ذهبية، بالملاحق، ص155.

(213) Rehren, Th, Nixon, Sam. Op.cit, p.35, Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1361.

(214) انظر الصورة رقم (14) لقوالب ضرب العملة الذهبية، بالملاحق، ص156.

(215) التأريخ الإشعاعي، أو قياس العمر إشعاعيًا هو طريقة تستخدم لتقدير عمر المواد، وتعني تحديد العمر بالطريقة الراديومترية (الإشعاعية). وذلك باستخدام الكربون 14 المشع، انظر صدقي، محمد كمال. **معجم المصطلحات الأثرية**، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1988، ص188؛ السلامين، زياد. **معجم المصطلحات الآثارية المصور**، دار ناشري للنشر الإلكتروني، 2012، ص200.

(216) أشار الدكتور إبراهيم السلمي إلى أن تاريخ هذه القوالب يرجع للقرنين الثاني والثالث للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، والصحيح وفقًا لتقارير الحفائر أنها ترجع للقرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، انظر: **مدينة تادمكة**، ص298.

(217) Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1357, Insoll, Timothy. **The Archaeology of Islamisation,** p.256.

(218) Rehren, Th., Nixon, Sam. Op.cit, p.35.

(219) Nixon, Sam. **Trans-Saharan Gold Trade,** p.171.

(220) Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1355.

(221) Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1364.

تدلنا بعض الأرقام والإحصاءات على ما أحدثه الذهب السوداني من ثراء في العالم الإسلامي، ففي الأندلس عثر في خزينة الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث (316-350هـ/929-961م) بقرطبة بعد وفاته على خمسة ملايين دينار أو ما يعادل 250 قنطارًا من الذهب المسكوك أو ما يساوي 25 ألف كيلو جرام. انظر: لومبارد، موريس. **الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى**، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، ط2، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، 1998، ص159.

ويقدم الفاطميون دليلاً آخر، فقد ازداد سك العملة الذهبية في عهدهم، فبعد أن احتكروا الذهب السوداني الذي منحهم القوة والثراء في القرن العاشر، ضربوا الكثير من النقود الذهبية، ففي النصف الأول من القرن المذكور استولى الفاطميون

على القيروان، ثم زحفوا باتجاه سجلماسة، وبهذا أصبحوا سادة الطرق المؤدية لبلاد السودان. وفي أواسط القرن نفسه بلغت كمية النقد المسكوك في سجلماسة 400 ألف دينار سنويًا.

وازدهرت دار السكة المصرية في العهد الفاطمي، وشهد ضرب العملة الذهبية أوج تطوره بمصر في عهد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام **الله** (495–524هـ/1101–1130م)، الذي ينسب إليه الدينار الأميري، نتيجة كثرة الذهب الذي توفر له. انظر، ابن بعرة. **كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية**، حققه عبد الرحمن فهمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1966، ص49–51؛ لومبارد، موريس. مرجع سابق، الصفحات: 88، 157–159.

(222) **وصف إفريقيا الشمالية**، ص9؛ العربي، إسماعيل. الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص282، 283.

(223) مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص224.

(224) انظر الصورة رقم (15)، بالملاحق، ص156.

(225) Nixon, Sam. **Trans-Saharan Gold Trade**, p.171, Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1365.

(226) زويلة بفتح أوله وكسر ثانيه: مدينة تقع في وسط الصحراء مقابل أجدابية، وهي غير مسورة، وفيها جامع وحمام، وأسواق، كان التجار يجتمعون فيها من كل جهة، الحموي. مصدر سابق، ج3، ص159، 160.

(227) الحموي، ياقوت. مصدر سابق، ج3، ص160.

(228) ابن خلدون. مصدر سابق، ج6، ص143؛ حسين، أحمد إلياس. **الإباضية في المغرب العربي**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1992، ص30.

(229) التطيلي، بنيامين. رحلة **بنيامين التطيلي**، ترجمة عزرا حداد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002، ص347؛ الفاسي، محمد، وهربك، إيفان. مرجع سابق، ص91.

(230) Mattingly, David& Sterry, Martin& Edwards, David. «The Origins and Development of Zuwīla, Libyan Sahara: an Archaeological and Historical Overview of an Ancient Oasis Town and Caravan Centre», Azania :Archaeological Research in Africa, Vol.50, No.1, March 2015, p.35.

(231) حسين، أحمد إلياس. مرجع سابق، ص42، 62.

(232) Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1360.

(233) مجهول. **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، ص205.

أشار ابن بطوطة (المتوفى عام 799هـ/1377م)، عند زيارته لمملكة مالي عام 753هـ/1352م إلى أن المسافر إلى هذه البلاد لا يحمل زادًا ولا دينارًا ولا درهمًا، وإنما يحمل قطع الملح وحُلي الزجاج، انظر: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ج4، ص248.

(234) انظر الصورة رقم (8)، بالملاحق، ص153.

(235) انظر الصورة رقم (6) لبعض حبات الخرز الزجاجي، بالملاحق، ص153.

(236) Rehren, Th., Nixon, Sam. Op.cit, p35.

(237) Ibid, p.33.

(238) Ibid, p.34.

(239) انظر الصورة رقم (9)، بالملاحق، ص154.

(240) وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص6.

(241) ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب، قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير، وبينها وبين السوس الأقصى أربع مراحل، وبينها وبين سجلماسة ثماني مراحل، الحموي. مصدر سابق، ج1، ص225.

(242) الإدريسي. مصدر سابق، ص4، 42.

(243) Cressier, Patrice. “Archéologie de la dévotion Soufi”, Journal des Africanistes, Vol. 62, No.2, Year 1992, p.71.

(244) Nixon, Sam. **Excavations in the Mosque Quarter,** p.58.

(245) Insoll, **Timothy. Trans-Saharan Trade and Islam,** p.559.

(246) Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1358.

(247) البكري. **المغرب**، ص181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص223.

(248) الحميري. مصدر سابق، ص427.

(249) البكري. **المغرب**، ص182؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص145، 146.

(250) الوسياني. مصدر سابق، ج2، ص550–552؛ ولد السالم، حماه الله. **صحراء الملثمين**، ص23.

(251) Nixon, Sam & Murray, Mary and Fuller, Dorian. Op.cit, p.234.

(252) ابن سعيد. **كتاب الجغرافيا**، ص91.

(253) المصدر السابق، ص91.

(254) انظر الصورة رقم (21)، بالملاحق، ص160.

(255) Farias. **Essouk Arabic Non-Funerary Inscriptions,** p.301.

(256) Farias. **Arabic and Tifinagh Inscriptions,** p.48.

(257) Lydon, Ghislaine. Op.cit, p.61.

(258) يوسف، جودت عبد الكريم. مرجع سابق، ص266–268.

(259) البكري. **المغرب**، ص182، 183؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص224.

(260) تقع مدينة أوغام إلى الشرق من مملكة غانة، والمسافة بين أوغام ورأس الماء على نهر النيجر تقدر بأربعة أيام، وأهل أوغام اشتهروا بزراعة الذرة، وكان عيشهم على الذرة، البكري. المغرب، ص180.

(261) مدينة تقع على نهر النيجر بالقرب من أوغام إلى الشرق من مملكة غانة، والمسافة بين أوغام ورأس الماء تقدر بأربعة أيام، البكري. **المغرب**، ص180.

(262) البكري. **المغرب**، ص180، 181.

(263) قسطيلية مدينة في بلاد الجريد من أرض الزاب الكبيرة، وهي مدينة كبيرة عليها سور حصين. الحموي. مصدر سابق، ج4، ص348.

(264) البكري. مصدر سابق، ص181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص224.

(265) بنعزوز، فريدة. **قراءة في أبحاث تاديوش ليفيتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب وبلاد السودان**، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1999، ص458؛ ليفيتسكي، تاديوز. **دور الصحراء الكبرى**، ص335.

(266) الوسياني: مصدر سابق، ج1، ص223؛ ج2، ص566، 567.

غيارو مدينة تقع في بلاد السودان الغربي، بينها وبين غانة نحو عشرين يومًا في عمائر متصلة، وبينها وبين نهر النيجر اثنا عشر ميلاً. الحميري. مصدر سابق، ص427.

(267) الشماخي. مصدر سابق، ص518.

(268) بلاد ونقارة بينها وبين غانة ثمانية أيام، وهي مشهورة بالتبر، وهي جزيرة طولها ثلاثمائة ميل، وعرضها خمسة عشر ميلاً، ويحيط بها نهر السنغال من كل جهة، الإدريسي. مصدر سابق، ص 8. ونتيجة قرب مملكة غانة من مناطق إنتاج الذهب، كان التجار يمرون عبر غانة للدخول إلى بلاد التبر، انظر: الحموي. مصدر سابق، ج2، ص400؛ القزويني. **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، 1969، ص57.

(269) يوسف، جودت عبد الكريم. مرجع سابق، ص268.

(270) مراد، حسين. دولة أودغست، ص 118–120.

(271) تيري، جاك. مرجع سابق، ص409.

(272) مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص224.

(273) اسم صُقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، طولها 43 درجة، وعرضها 33 درجة. الحموي. مصدر سابق، ج1، ص388، 399.

(274) عثمان، شوقي عبد القوي. مرجع سابق، ص52.

(275) Willard, Alice. **Rivers Of Gold, Oceans Of Sand: The Songhay In The West African World- System,** PHD, The John Hopkins University, Mary Land, U.S.A, 1999, p.208.

(276) مدينة تقع على نهر النيجر على الطريق بين غانة وتادمكة، سكنتها قبائل من صنهاجة، البكري. **المغرب**، ص181.

(277) البكري. **المغرب**، ص181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص223، 224.

(278) البكري. **المغرب**، ص181؛ تيري، جاك. مرجع سابق، ص263.

Lewick, Tadeusz. Op.cit, pp.163, 164.

(279) Willard, Alice. Op.cit, p.269.

(280) استنتج الدكتور إبراهيم السلمي أن تادمكة كانت محطة رئيسة للطرق التجارية إما بجعلها نقطة بداية أو نقطة نهاية لها انظر: **مدينة تادمكة**، ص297.

(281) **صورة الأرض**، ص 102.

(282) **المغرب**، ص181، 182.

(283) **سير الوسياني**، ج1، ص96، 223؛ ج2، ص553.

(284) **طبقات المشائخ بالمغرب**، الصفحات: 367، 378، 380، 381.

(285) الشماخي. مصدر سابق، ص393، 394.

(286) البكري. **المغرب**، ص180؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص222.

(287) الإدريسي. مصدر سابق، ص8، 9.

(288) ابن حماد. مصدر سابق، ص53؛ المقريزي. مصدر سابق، ج1، ص75.

(289) ليفيتسيكي، تاديوش. **دولة تاهرت**، ص168.

(290) الونشريسي. مصدر سابق، ج9، ص116؛ مراد، حسين سيد. **الصلات**، ص

Tibi, Amin. Op.cit, p.237.

(291) البغطوري. **سيرة مشائخ نفوسة**، حققه: توفيق عياد الشقروني، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، 2009، ص51.

(292) الوسياني. مصدر سابق، ج2، ص550–552؛ ولد السالم، حماه الله. **صحراء الملثمين**، ص23.

(293) الوسياني. مصدر سابق، ج2، الصفحات: 799، 803، 804.

(294) Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, pp.1364, 1365.

(295) **سير الوسياني**، ج1، ص446؛ مزهودي، مسعود. **جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب 21-442هـ/642-1053م**، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، 2003، ص236، 237.

(296) السدراتي نسبة إلى منطقة سدراتة الواقعة إلى الجنوب من وارجلان بسبعة أميال، حسين، أحمد إلياس. مرجع سابق، ص48.

(297) ابن حماد. مصدر سابق، ص53؛ المقريزي. مصدر سابق، ج1، ص75؛ الطيبي، أمين توفيق. مرجع سابق، ص262.
Tibi, Amin. Op.cit, p.237.

(298) الزهري. مصدر سابق، ص126.

(299) سير الوسياني، ج1، ص446؛ مزهودي، مسعود. مرجع سابق، ص236، 237.

(300) المراكشي. مصدر سابق، ص434.

(301) الوسياني. مصدر سابق، ج1، ص446؛ مزهودي، مسعود. مرجع سابق، ص236، 237.

(302) **بسط الأرض**، ص60.

(303) البكري. **المغرب**، ص183؛ ولد الحسين، الناني. مرجع سابق، ص303.

(304) مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص223.

(305) Nixon, Sam & Murray, Mary and Fuller, Dorian. Op.cit, pp.226- 228.

(306) الإدريسي. مصدر سابق، ص60، 88؛ يوسف، جودت عبد الكريم. مرجع سابق، ص276؛ رشيد، عبد العزيز. «تصدير المغرب الأوسط للحبوب من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي»، السنة التاسعة، دورية كان التاريخية، العدد 34، 2016، ص113.

(307) طه، جمال أحمد. **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين دراسة سياسية وحضارية**، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001، ص238.

(308) Nixon, Sam. “Before Timbuktu: The Great Trading Centre of Tadmakka”, Current World Archaeology, Issue.39, 2010, p.49.

(309) انظر الصورة رقم (16)، بالملاحق، ص157.

(310) Desrosiers, Sophie. **L Note sur le damas et sur le «voile» de soie d’Essouk-Tadmekka,** In Nixon, Sam (Editor): Essouk-Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017, p.393.

(311) Ibid, p.395.

(312) الزهري. مصدر سابق، ص123، 124.

(313) ابن خلدون: مصدر سابق، ج6، ص201؛ عثمان، شوقي عبد القوي. مرجع سابق، ص52.

(314) الدرجيني. مصدر سابق، ص374، 375؛ مزهودي، مسعود. مرجع سابق، ص232.

(315) الوسياني. مصدر سابق، ج3، ص803، 804؛ الدرجيني. مصدر سابق، ص375.

(316) **التشوف إلى رجال التصوف**، ص281، 282.

(317) **صورة الأرض**، ص101.

(318) البكري. **المغرب**، ص183؛ ليفيتسيكي، تاديوش. دولة تاهرت، ص168.

(319) انظر الصورة رقم (11) للأحجار شبه الكريمة، بالملاحق، ص154.

(320) Nixon, Sam. **Before Timbuktu: the Great Trading Centre,** p.49.

(321) انظر: مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص224؛ الحميري. مصدر سابق، ص600؛ مزهودي، مسعود. مرجع سابق، ص234.

(322) **المغرب**، ص182.

(323) Nixon, Sam. **Tadmekka Archéologie,** pp.52, 89.

(324) محمود، منى حسن. «تجارة السودان الغربي قبل قيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري»، مجلة المؤرخ المصري، تصدرها كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد 7، 1991، ص289.

(325) وَدان: مدينة في جنوبي إفريقية، بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، ولها قلعة حصينة ودروب، الحموي. مصدر سابق، ج5، ص366.

(326) الإدريسي. مصدر سابق، ص99، 100.

(327) انظر الصورة رقم (10) للفخار المزجج، بالملاحق، ص154.

(328) Nixon, Sam. **Before Timbuktu: the Great Trading Centre,** p.49.

فارياس، باولو فرناندو دي مورايس. «نظام تجارة تادمكة وجاو كاوكاو وكوكيا في إطار تاريخ الاتصالات الثقافية على امتداد طرق التجارة عبر الصحراء مع التركيز على الكتابات المستمدة من الكتابات العربية في العصور الوسطى»، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد 1، السنة الثالثة، يناير 1981، ص55.

(329) انظر: الصورة رقم (7) لبقايا أوانٍ زجاجية، بالملاحق، ص153.

(330) Nixon, Sam. **Before Timbuktu: The Great Trading Centre, p.49, Nixon, Sam. Tadmekka. Archéologie,** pp.38, 39.

(331) البكري. **المغرب**، ص181؛ مجهول. كتاب الاستبصار، ص223.

(332) **صورة الأرض**، ص101؛ القاسمي، هاشم العلوي. مرجع سابق، ج2، ص101، 107.

(333) **صورة الأرض**، ص101، 102.

يُفهم من كلام ابن حوقل أن بني تانماك بربر ذوو بشرة سوداء نتيجة اختلاطهم بالسودان، ولا يحملنا هذا على عدهم من العنصر السوداني كما ظن البعض، انظر السلمي، إبراهيم. مرجع سابق، ص299.

(334) **صورة الأرض**، ص101، 102؛ ولد الحسين، الناني. مرجع سابق، ص21.

(335) Farias. **Arabic Medieval Inscriptions,** p.133.

(336) Ibid, p.136.

(337) ليفيتسكي، تاديوز. **دور الصحراء الكبرى**، ص340.

(338) Lewick, Tadeusz. Op.cit, p.165, Belhachemi, Faouzia. “Nouvelle Interprétation du Processus de Peuplement dans le Massif du Hoggar à partir des Géographes Arabes”, Revue de Géographie Alpine, Tome 79, n°1, 1991, p.148.

(339) **معجم البلدان**، ج3، ص145.

(340) Farias. **Arabic Medieval Inscriptions,** p.89.

(341) Ibid, p.101.

(342) Ibid, p.108.

(343) Ibid, p.103.

(344) Ibid, p.91.

(345) Farias. **Essouk Arabic Non-Funerary Inscriptions,** pp.299, 300.

(346) Farias. **Arabic Medieval Inscriptions,** pp.128, 129.

(347) Ibid, p.106.

(348) Ibid, p.149.

(349) Ibid, p.134.

(350) Ibid, pp.91, 92.

(351) Hussein, Ahmed Elyas. «The Spread of Islam in the Niger and Senegal Valleys before the Rise of Almoravids», Intellectual Discourse, Vol. 9, No.2, 2001, p.170.

(352) انظر: الزهري. مصدر سابق، ص125، 126؛ الوسياني. مصدر سابق، ج1، ص446؛ ابن خلدون. مصدر سابق، ج4، ص84؛ المقريزي. مصدر سابق، ج1، ص75.

(353) البكري. **المغرب**، ص158؛ مراد، حسين سيد. دولة أودغست، ص121.

(354) **صورة الأرض**، ص101.

(355) Hussein, Ahmed Elyas. Op.cit, p.170.

(356) الزهري. مصدر سابق، ص125، 126؛ الوسياني. مصدر سابق، ج1، ص446؛ المقريزي. مصدر سابق، ج1، ص75.

(357) البكري. **المغرب**، ص181؛ مجهول. كتاب الاستبصار، ص223.

(358) Nixon, Sam & Murray, Mary and Fuller, Dorian. Op.cit, pp.226 - 228.

(359) Ibid, p.233.

(360) صورة الأرض، ص84.

(361) الدراريع مفردها دُرَّاعَة، وهي ضرب من الثياب عبارة عن جُبَّة مشقوقة المُقدَّم، انظر: الفراهيدي. العين، حققه مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ج2، دار ومكتبة الهلال للنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، ص35.

(362) العمري. مصدر سابق، ج4، ص81؛ القلقشندي. مصدر سابق، ج5، ص204.

(363) البكري. **المغرب**، ص181؛ مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص223.

(364) Desrosiers, Sophie. Op.cit, p.393.

(365) البكري. **المغرب**، ص181؛ مجهول. كتاب الاستبصار، ص223.

(366) **المُغرب**، ص181.

(367) **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**، ص7.

(368) انظر: الصورتين رقم (4)، (5) لجدار حجري، ولأحد مباني تادمكة، بالملاحق، ص148، 149.

(369) Nixon, Sam. **Tadmekka Archéologie,** pp.17,19, 20, Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. Op.cit, p.1358.

(370) Nixon, Sam. **Tadmekka Archéologie,** pp.19, 20, 22.

(371) Ibid, p.29.

(372) Ibid, p.27.

(373) Cressier, Patrice. Op.cit, p.71.

(374) Nixon, Sam. **Excavations in the Mosque Quarter,** p.58.

(375) Insoll, Timothy. **The Archaeology of Islam,** p.216.

(376) Cressier, Patrice. Op.cit, p.73.

(377) Nixon, Sam. **Tadmekka Archéologie,** pp.12, 14.

(378) البكري. **المغرب**، ص181، 182؛ مجهول. كتاب الاستبصار، ص223؛ الحميري. مصدر سابق، ص128، 129.

(379) البكري. **المغرب**، ص181، 182؛ مجهول. كتاب الاستبصار، ص223.

(380) النويري. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، حققه: مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص385؛ ولد الحسين، الناني. مرجع سابق، ص165-169.

(381) تيري، جاك. مرجع سابق، ص425؛ كاظم، نادر. **تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، البحرين، 2004، ص438، 439.

(382) مدينة وقلعة يقال لها قسنطينية الهواء، وهي قلعة كبيرة جدًا، حصينة وعالية، وهي من حدود إفريقية مما يلي المغرب، وحولها مزارع كثيرة، وإليها ينتهي رحيل عرب إفريقية. الحموي. مصدر سابق، ج4، ص349.

(383) **صورة الأرض**، ص91-93.

(384) مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص144، 145.

يقول صاحب الاستبصار: «والزنى الحرام بجبل نفوسة في مذهبهم»، وأن الرجل الثري منهم يمتلك عددًا كثيرًا من الوصيفات اللاتي يلبسهن الثياب

الفاخرة والحلي، ثم يرسلهن على الطرقات لاستقطاب الرجال للفاحشة، ولهم ديار معدة لذلك وهذا عندهم معروف لا ينكر. انظر: مجهول. **كتاب الاستبصار**، ص144، 145.

(385) **آثار البلاد وأخبار العباد**، ص164.

(386) انظر: كاظم، نادر. مرجع سابق، ص438.

(387) مجهول. **خبر السوق**، ص24، 25؛ السوقي، الشيخ محمد العتيق. مصدر سابق، ص37.

(388) السوقي، الشيخ محمد العتيق. مصدر سابق، الصفحات: 36، 37، 39.

(389) Nixon, Sam. **Tadmekka Archéologie,** pp.30, 31.

(390) العمري. مصدر سابق، ج4، ص81؛ القلقشندي. مصدر سابق، ج5، ص204.

(391) Nixon, Sam. **Tadmekka Archéologie,** p.64.

(392) الشكري، أحمد. صفحات من تاريخ ولاتة، هامش رقم 1 ص18.

(393) **مسالك الأبصار**، ج4، ص81؛ كتاب صبح الأعشى، ج5، ص204.

(394) السوقي، الشيخ محمد العتيق. مصدر سابق، ص39.

(395) السعيدي. مصدر سابق، ص20، 21.

(396) الشكري، أحمد. **صفحات من تاريخ ولاتة**، ص16.

(397) **ملوك السودان أهل سُغي**، ص21، 22.

(398) Perinbam, B. Marie. “Social Relations in the Trans-Saharan and Western Sudanese Trade: An Overview”, Comparative Studies in Society and History, Vol. 15, No. 4 (Sep., 1973), p.421.

(399) إسماعيل العربي. مرجع سابق، ص293.

(400) Cressier, Patrice. Op.cit, p.69, Duponcïïel, A. **Le Chemin De Fer Trans-Sahàrien Jonction Coloniale Entre L’algérie Et Le Soudan,** Librairie Hachette Et CIe, Paris, 1973, p.199.

(401) وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص9، 10.

(402) **المُغرب**، ص181؛ ليفيتسكي، تاديوز. دور الصحراء، ص340.

(403) **رحلة ابن بطوطة**، ج4، الصفحات: 239 – 280.

(404) هناك عدد آخر من شواهد القبور لرجال وسيدات توفوا خلال القرنين السابع والثامن للهجرة، وتحمل هذه الشواهد الصيغ والدلالات الدينية نفسها التي حملتها شواهد القرنين الخامس والسادس للهجرة، منها شاهد لسيدة توفيت عام 609هـ. وشاهد آخر لرجل توفي عام 642هـ. وآخر توفي عام 648هـ، وشاهد آخر لرجل توفي عام 672هـ، وآخر توفي عام 680هـ، وآخر توفي صاحبه عام 688هـ، انظر:

Farias. **Arabic Medieval Inscriptions,** pp.110, 112 - 115,137.

وهناك شواهد لمتوفين خلال القرن الثامن للهجرة أحدها لرجل توفي عام 742هـ، وآخر لسيدة، وأرخ بعد البسملة والصلاة على النبي صلى **الله** عليه وسلم بعام 757 أو 759هـ، وشاهد آخر لرجل توفي عام 787 أو 789هـ، انظر:
Farias. Arabic Medieval Inscriptions, pp.117, 118, 143.

(405) يحدثنا الإدريسي عن مدينة اسمها نبرنته بينها وبين تيرقى 17 مرحلة، ويذكر أنها كانت مدينة مشهورة، ولكنها أصبحت خرابًا لتغلب الرمل على مساكنها حتى خربت، وعلى مياهها حتى نشفت، وقل ساكنها، وليس بها في هذا الزمان إلا بقايا قوم تشبثوا بمقامهم في بقايا خرابها حنانًا للموطن. انظر: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص21.

(406) Nixon, Sam. A Longing for Mecca, p.70.

(407) ابن خلدون. مصدر سابق، ج6، ص267، 268؛ كعت، محمود. تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشره هوداس ودولافوس، مطبعة إنجي، باريس، 1913، الصفحات: 33–37، 66–69؛ السعيدي. مصدر سابق، الصفحات: 7، 8، 72، 73؛ غرياني، بطل شعبان. «الرقيق في رحلات حج ملوك السودان

الغربي: رحلتا منسا موسى ملك مالي والأسكيا محمد الأول ملك صنغي نموذجًا»، Al-Hikmah Journal of Islamic Studies, Department of Islamic Studies, Umaru Musa Yaradua University, Katsina, Nigeria, Vol.6, No.1, December 2018, pp.240, 241.

المراجع

أولاً - المراجع العربية:

- أباظة، سوزي. «عائلة أقيت وإسهاماتها الثقافية في تنبكت»، مجلة الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، العدد 26، 2004.
- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن، المتوفى عام 630هـ/1233م). **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، 1979.
- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن، المتوفى عام 630هـ/1233م). **أُسْد الغابة في معرفة الصحابة**، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، 2012.
- الأحمد، محمد علي. **مراحل الفتح الإسلامي في بلاد المغرب العربي دراسة لجهود الفاتحين في نشر الإسلام والتعريب**، الأكاديميون للنشر والتوزيع، الأردن، 2014.
- الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله، المتوفى عام560هـ/1164م). **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشره وصححه هنري بيريس، الجزائر، 1957.
- الإدريسي، عبد الله حمادي. **قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس: سجلماسة ووريثتها تافيلالت تاريخًا وأمجادًا وجهادًا**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2016.
- الأرواني (محمد محمود). **الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلد تنبكت وشنقيط وأروان في جميع البلدان**، مخطوطة بمركز أحمد بابا التنبكت، مدينة تنبكت، مالي، دون تصنيف.
- الاصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المتوفى عام346هـ/957م). **كتاب مسالك الممالك**، مطبعة بريل، ليدن، 1937.
- الأنصاري، عمر. **الرجال الزرق: الطوارق الأسطورة والواقع**، دار الساقي، بيروت، 2017.
- باباعمي، محمد بن موسى، وبحاز، إبراهيم، وآخرون. **معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر**، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

- بازينة، عبد الله سالم. **انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء**، المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، 2010.

- البدراني، سلمان محمد سلمان. «إمارة صنهاجة في أودغست: دراسة في أوضاعها السياسية»، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العراق، المجلد 20، العدد 8، أغسطس 2013.

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي، المتوفى عـام779هـ/1377م). **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.

- ابن بعرة (منصور بن بعرة الذهبي الكاملي، المتوفى بعد عام 1135هـ/1722م). كتاب **كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية**، حققه عبد الرحمن فهمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1966.

- البغطوري (كان حيًا في نهاية القرن السادس الهجري). **سيرة مشائخ نفوسة، حققه** توفيق عياد الشقروني، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، 2009.

- البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز، المتوفى عام 487هـ/1094م). **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

- البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز، المتوفى عام 487هـ/1094م). **كتاب المسالك والممالك**، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، 1992.

- بلحسين، سعاد. «العلاقات المغربية الإفريقية: الحضور المرابطي في السودان الغربي نموذجًا»، مجلة أمل، المجلد 25، العدد 49، المملكة المغربية، 2017.

- بنعزوز، فريدة. **قراءة في أبحاث تاديوش ليفيتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب وبلاد السودان**، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1999.

- التادلي (يوسف بن يحيى التادلي، المتوفى عام 627هـ/1229م). **التشوف إلى رجال التصوف**، حققه أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1984.

- التادمكي، محمد بن ميدي. **سلالم الإخوان إلى مواهب الرحمن: شرح منظومة في أبنية الأفعال،** حققه محمد بن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكمة، المملكة العربية السعودية، 2011.

- التطيلي (الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي، توفي عام 569هـ/1173م). **رحلة بنيامين التطيلي،** ترجمة عزرا حداد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002.

- تميم (أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، المتوفى عام 337هـ/944م). **طبقات علماء إفريقية وتونس،** حققه علي الشابي ونعيم حسن، الدار التونسية للنشر، ط2، 1985.

- تيري، جاك. **تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى،** ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، 2004.

- جعفري، أحمد أبا الصافي. **اللهجة التواتية الجزائرية،** منشورات الحضارة للنشر والتوزيع والطباعة، الجزائر، 2017.

- حسين، أحمد إلياس. **الإباضية في المغرب العربي،** مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1992.

- ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن علي، المتوفى عام 628هـ/1231م). **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم،** حققه التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، 1401هـ.

- الحموي (شهاب الدين ياقوت الرومي البغدادي، المتوفى عام 626هـ/1229م). **معجم البلدان،** دار صادر، بيروت، 1977.

- الحميري (محمد بن عبد المنعم الحميري، المتوفى عام 900هـ/1494م). **الروض المعطار في خبر الأقطار،** تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى 1975.

- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، المتوفى عام 367هـ/977م). كتاب **صورة الأرض،** دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

- ابن خرداذبة (المتوفى حوالي عام300هـ/912م). **المسالك والممالك،** تحقيق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن أبي محمد بن الحسن، المتوفى عام 808هـ/1406م). **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000.
- الدالي، الهادي المبروك. **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999.
- الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد، المتوفى حوالي 670هـ/1271م). **طبقات المشائخ بالمغرب**، حققه إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، الجزائر، 1974.
- رشيد، عبد العزيز. «تصدير المغرب الأوسط للحبوب من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي»، السنة التاسعة، دورية كان التاريخية، العدد 34، 2016.
- زكي، عبد الرحمن. **الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا**، مجموعة محاضرات ألقيت في معهد الدراسات الإسلامية، مطبعة يوسف، القاهرة ، د.ت.
- الزهري (محمد بن أبي بكر الزهري، كان حيًا عام 532هـ/1136م). **كتاب الجغرافية**، حققه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
- ابن سعد (محمد بن سعد، المتوفى عام 230هـ/845م). **كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001.
- ابن سعيد (أبو الحسن علي بن سعيد المغربي، المتوفى عام 685هـ/1286م):
- **بسط الأرض في الطول والعرض**، تحقيق خوان كرميظ خيديس، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1958.
- **كتاب الجغرافيا**، تحرير وتعليق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013.
- **المُغرب في حُلَى المَغرب**، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1964.
- السعيدي (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران، المتوفى عام 1067هـ/1656م). **ملوك السودان أهل سغي وقصصهم وأخبارهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك**، تحقيق هوداس وبنوا، مطبعة أنجي، باريس، 1898.

- السلامين، زياد. **معجم المصطلحات الآثارية المصور**، دار ناشري للنشر الإلكتروني، 2012.

- السلمي، إبراهيم بن عطية الله. «مدينة تادمكة في العصر الإسلامي: من القرن الثاني الهجري إلى القرن الثامن الهجري/ القرن الثامن الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي»، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 66، 2016.

- السوقي (الشيخ محمد العتيق بن الشيخ سعد الدين). **الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين ومن يجاورهم من السوادين**، مخطوطة مرقونة بمكتبة محمد محمود ولد ودادي، نواكشوط، موريتانيا.

- السوقي، محمد أحمد الإدريسي. **المدارس الأدبية في صحراء الطوارق**، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2010.

- الشكري، أحمد. **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي**، إصدارات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999.

- الشكري، أحمد. «صفحات من تاريخ ولاتة»، مجلة قراءات إفريقية، العدد 34، محرم- ربيع الأول 1439هـ/ أكتوبر-ديسمبر 2017م.

- الشماخي (أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، المتوفى عام865هـ/1460م). **كتاب السير**، تحقيق محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، د.ت.

- الشيخلي، صباح إبراهيم. **النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن 5هـ/11م**، منشورات معهد الدراسات والبحوث العربية، بغداد، 1984.

- صدقي، محمد كمال. **معجم المصطلحات الأثرية**، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1988.

- طه، جمال أحمد. **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين دراسة سياسية وحضارية**، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001.

- الطيبي، أمين توفيق. «الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى»، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثانية، العدد الثاني، يوليو، 1980.

- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، المتوفى عام 463هـ/1071م). **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، حققه محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1992.
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، المتوفى عام 257هـ/871م). **فتوح مصر والمغرب**، حققه عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 1961.
- ابن عبد الرؤوف (أحمد بن عبد الله، المتوفى في النصف الأول من القرن 6هـ/12م). **رسالة في آداب الحسبة والمحتسب**، حققه ليفي بروفنسال، منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، القاهرة، 1955.
- العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد، توفي بعد سنة 700هـ/1300م). **رحلة العبدري**، حققها علي إبراهيم كردي، ط2، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005.
- ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي،عاش أواخر ق 5هـ/11م، وأوائل ق 6هـ/12م). **رسالة في القضاء والحسبة**، حققه ليفي بروفنسال، منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، القاهرة، 1955.
- عثمان، شوقي عبد القوي. **التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر سلاطين المماليك**، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.
- ابن عذاري المراكشي (أبو العباس محمد أبو عبد الله، كان حيًا 712هـ/1312م). **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، حققه كولان وليفي بروفنسال، ط3، الدار العربية للكتاب، بيروت – لبنان، 1983.
- العربي، إسماعيل. **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- العمري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى،المتوفى عام 749هـ/1348م). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين، مركز زايد للتراث والتاريخ، أبو ظبي، 2001.
- عياض اليحصبي (أبو الفضل عياض بن موسى السبتي، المتوفى عام 544هـ/1149م). **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق عبد القادر الصحراوي**، ط2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1983.

- غرياني، بطل شعبان. «الرقيق في رحلات حج ملوك السودان الغربي: رحلتا منسا موسى ملك مالي والأسكيا محمد الأول ملك صنغي نموذجًا»، بحث منشور في:

Al-Hikmah Journal of Islamic Studies, Department of Islamic Studies, Umaru Musa Yaradua University, Katsina, Nigeria, Vol.6, No.1, December 2018.

- فارياس، باولو فرناندو دي مورايس. «نظام تجارة تادمكة وجاو كاوكاو وكوكيا في إطار تاريخ الاتصالات الثقافية على امتداد طرق التجارة عبر الصحراء مع التركيز على الكتابات المستمدة من الكتابات العربية في العصور الوسطى»، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد1، السنة الثالثة، يناير1981.

- الفاسي، محمد، وهربك، إيفان. **مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا**، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث: إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، ط2، بإشراف م. الفاسي، إ. هربك، اليونسكو، 1997.

- الفراهيدي (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، المتوفى عام170هـ/786م). **العين**، حققه مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال للنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.

- ابن فرحون (عبد الله بن محمد بن فرحون المالكي، المتوفى عام 769هــ/1369م). **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، حققه محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود، المتوفى عام682هـ/1283م). **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، 1969.

- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، المتوفى عام 821هــ/1418م). **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، حققه محمد حسين شمس الدين وآخرون، ج7، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012.

- القاسمي، هاشم العلوي. **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1995.

- كاظم، نادر. **تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، البحرين، 2004.

- كعت (محمود بن الحاج المتوكل كعت الكرمني، المتوفى عام1002هـ/1593م). **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، نشره هوداس ودولافوس، مطبعة إنجي، باريس، 1913.

- الكُنتي (سيدي محمد الخليفة، المتوفى عام1226هـ/1811م). **الرسالة الغَلَّاوية المسماة مُبردة الغليل وشافية الغل من صدور جميع المؤمنين خصوصًا بني محمد غل**، حققه حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013.

- لومبارد، موريس. **الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى**، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، الطبعة الثانية، 1998.

- ليفيتسكي، تاديوز. **دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب**، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث: إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، إشراف محمد الفاسي وإيفان هربك، اليونسكو، ط2، 1997.

- ليفيتسيكي، تاديوش. «دولة تاهرت الشمال إفريقية وعلاقاتها مع السودان الغربي في نهاية القرن الثامن وإلى القرن التاسع الميلادي»، ترجمة وتعليق عبد القادر مباركية، دورية كان التاريخية، السنة العاشرة، العدد الخامس والثلاثون، مارس، 2017.

- المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد، المتوفى عام 438هـ/1064م). **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994.

- مجهول (ألفه سنة 372هـ/982م). **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، حققه وترجمه عن الفارسية السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2000.

- مجهول (مؤلف مراكشي من أهل القرن السادس للهجرة). **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ت.

- مجهول. **خبر السوق،** تقديم وتعليق عبد الحميد الهرامة، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 2003.

- محمود، حسن أحمد. **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا،** دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.

- محمود، منى حسن. «تجارة السودان الغربي قبل قيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري»، مجلة المؤرخ المصري، تصدرها كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد7، 1991.

- ابن مخلوف (محمد بن محمد بن عمر، المتوفى عام 1360هـ/1941م). **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،** خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.

- مراد، حسين سيد. **الصلات بين المغرب والسودان الغربي (خلال القرن 2-6هـ/8-12م)،** ضمن أبحاث مؤتمر الإسلام في إفريقيا، الكتاب الحادي عشر، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ليبيا وجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، 2006.

- مراد، حسين سيد. «العرب في مدينة القيروان ودورهم الثقافي حتى نهاية عصر الولاة»، نشرة دورية محكمة، يصدرها معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، العدد42، 1995.

- مراد، حسين سيد. «دولة أودغست الإسلامية من القرن الثاني إلى الخامس للهجرة/ القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد»، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد 46، 2008.

- مراد، حسين سيد. «مملكة صنغاي»، مجلة قراءات إفريقية، العدد الثالث عشر، رجب – رمضان 1433هـ/ يوليو- سبتمبر 2012م.

- المراكشي (عبد الواحد المراكشي، المتوفى عام 647هـ/1249م). **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين،** حققه محمد سعيد العريان، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، د.ت.

- المراكشي (عباس بن إبراهيم، المتوفى عام 1326هـ/1908م). **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، المطبعة الجديدة، فاس، 1936.

- مرحبا (محمد المفتي). **فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان**، مخطوطة بمعهد البحوث في العلوم الإنسانية، نيامي، النيجر، تحت رقم 108.

- مزهودي، مسعود. **جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب 21-442هـ/642-1053م**، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، 2003.

- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، المتوفى عام845هـ/1441م). **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا**، حققه جمال الدين الشيال ومحمد حلمي، ط2، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1996.

- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد، المتوفى عام1250هـ/1835م). **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.

- هربك، إيفان، ودُفيس، جان. **المرابطون**، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث: إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، ، ط2، إشراف محمد الفاسي وإيفان هربك، اليونسكو1997.

- الوزان (الحسن بن محمد الوزان، المتوفى عام960هـ/1552م). **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

- الوسياني (أبو الربيع سليمان بن عبد السلام، كان حيًا عام 557هـ/1161م). **سير الوسياني**، حققه عمر بن لقمان بو عصبانة، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2009.

- ولد الحسين، الناني. **صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط**، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2007.

- ولد السالم، حماه الله. **صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.

- ولد السالم، حماه الله. **دراسات في تاريخ العرب الحديث مراجعات نقدية**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2018.

- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى، المتوفى عام 914هـ/1508م). **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981.

- يوسف، جودت عبد الكريم. **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.

ثانياً - المراجع الأجنبية:

- Belhachemi, Faouzia. “Nouvelle Interprétation du Processus de Peuplement dans le Massif du Hoggar à partir des Géographes Arabes”. Revue de Géographie Alpine, Tome 79, n°1, 1991.

- Conrad, David & Fisher, Humphrey. “The Conquest that Never was: Ghana and the Almoravids 1076 the External Arabic Sources”. History in Africa, Vol.9, 1982.

- Cressier, Patrice. “Archéologie de la dévotion Soufi”. Journal des Africanistes, Vol. 62, No.2, Year 1992.

- Desrosiers, Sophie. **L Note sur le damas et sur le «voile» de soie d’Essouk-Tadmekka.** In Nixon, Sam (Editor): Essouk- Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017.

- Duponcïïel, A. **Le Chemin De Fer Trans-Sahàrien Jonction Coloniale Entre L’algérie Et Le Soudan.** Librairie Hachette Et CIe, Paris, 1973.

- Gomez, Michael. A. **African Dominion: A New History of Empire in Early and Medieval West Africa.** Princeton University Press, United Kingdom, 2018.

Farias, Paulo Fernando de Moraes:

- **Arabic Medieval Inscriptions from the Republic of Mali: Epigraphy,**

Chronicles, and Songhay- Tuareg History. Published for the British Academy by Oxford University Press, New York. 2003.

- **Arabic and Tifinagh Inscriptions In: Essouk - Tadmekka,** In Nixon, Sam (Editor): Essouk – Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Town, Brill, Leiden/ Boston, 2017.
- **Essouk Arabic Non-Funerary Inscriptions,** New (Previously Unpublished) Series, In Nixon, Sam (Editor): Essouk- Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017.
- Insoll, Timothy:
- **The Archaeology of Islam in Sub-Saharan Africa,** Cambridge University Press, New York, 2003.
- **The Archaeology of Islamisation in Sub-Saharn Africa,** In Peacock, A (Editor): Islamisation Comparative Perspectives from History, Edinburgh University Press, UK, 2017.
- **Trans-Saharan Trade and Islam,** In Linehan, Peter and Others (eds): The Medieval World, Rutledge, 2018.
- "The Oldest Extant Writing of West Africa: Medieval Epigraphs from Issuk, Saney and Egef-n-Tawaqqast (Mali)", Journal des Africanistes, Vol.60, Numéro.2, (Année 1990).
- "Bentyia (Kukyia): A Songhay–Mande Meeting Point, and a "Missing Link" in the Archaeology of the West African Diasporas of Traders, Warriors", Praisesingers, and Clerics, Afriques, No. 4, 2013.
- Hunwick, John. "Ahmed Baba and The Moroccan Invasion of the Sudan (1591)". Journal of the Historical Society of Nigeria, No. II, Ibadan, 1962, P. 312.
- Hussein, Ahmed Elyas. "The Spread of Islam in the Niger and Senegal Valleys before the Rise of Almoravids". Intellectual Discourse, Vol. 9, No.2, 2001.

- Levtzion, Nehmia. “Ibn-Hawqal, the Cheque, and Awdaghost”. The Journal of African History, Vol. 9, No. 2, 1968.
- Lewick, Tadeusz. “Les Origines et L’islamisation de la Ville de Tâdmakka d’après les Sources Arabes”. Outre-Mers Revue d’Histoire, Vol. 242-243, Année 1979.
- Lewis, L . M . **Islam in Tropical Africa.** Oxford,1960.
- Lydon, Ghislaine. **On Trans-Saharan Trails: Islamic Law, Trade Networks, and Cross-cultural Exchange in Nineteenth Century Western Africa.** Cambridge University Press, New York, 2009.
- Mattingly, David& Sterry, Martin& Edwards, David. “The Origins and Development of Zuwīla, Libyan Sahara: an Archaeological and Historical Overview of an Ancient Oasis Town and Caravan Centre”. Azania :Archaeological Research in Africa, Vol.50, No.1, March 2015.
- Mauny, R. **Tableau Géographique de l’Ouest Africain au Moyen-âge.** Dakar, 1961.

Nixon, Sam:

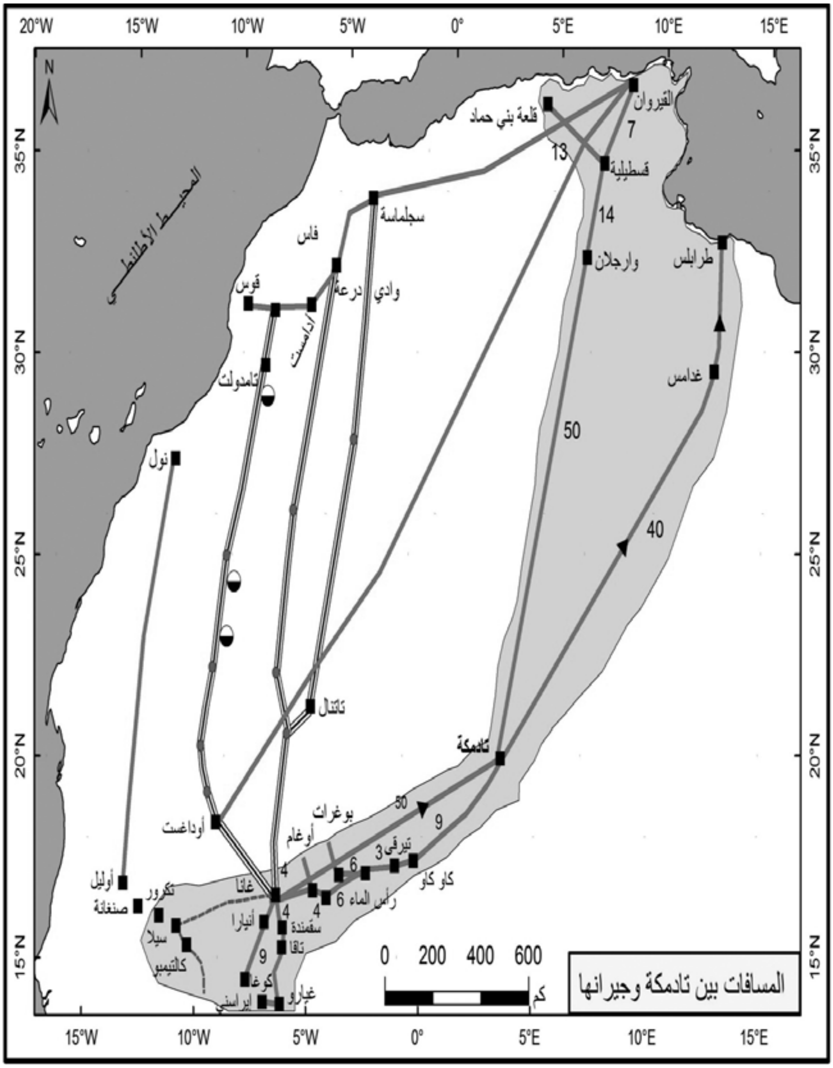
- **A Longing for Mecca The Trans-Saharan Hajj and the Caravan Towns of West Africa,** In Porter, Venetia and Saif, Liana: “ The Hajj Collected Essays “, The Trustees of the British Museum, London, 2013.
- **Excavations in the Mosque Quarter (Unit Ek-A),** In Nixon, Sam (Editor): Essouk- Tadmekka An Early Islamic Trans-Saharan Market Trade, Brill, Leiden/ Boston, 2017.
- **Trans-Saharan Gold Trade in Pre-Modern Times Available Evidence and Research Agendas,** In: Leitch, Mattingly and Others (Editors): Trade in the Ancient Sahara and Beyond, Cambridge University Press, USA, 2017.
- “Before Timbuktu: The Great Trading Centre of Tadmakka”, Current World Archaeology, Issue.39, 2010.

- "Tadmekka Archéologie d'une Ville Caravanière des Premiers Temps du Commerce Transsaharien". Histoire et archéologie du Sahel ancien : nouveaux regards, nouveaux chantiers, Vol.4, 2013.
- Nixon, Sam & Murray, Mary and Fuller, Dorian. "Plant use at an Early Islamic Merchant Town in the West African Sahel: the Archaeobotany of Essouk-Tadmakka (Mali)". Veget Hist Archaeobot, Vol.20, 2011.
- Nixon, Sam, Rehren, Thilo & Guerra, Maria. "New Light on the Early Islamic West African Gold Trade: Coin Moulds from Tadmekka". Mali, Antiquity, Vol. 85, 2011.
- Perinbam, B. Marie. "Social Relations in the Trans-Saharan and Western Sudanese Trade: An Overview". Comparative Studies in Society and History, Vol. 15, No. 4 (Sep., 1973).
- Tibi, Amin. "Impact of Islam on Medieval Ghana and Mali (10th- 14th Century)". Magazine of the Faculty of the Islamic Call, First Year, Issue. 1, 1984-1985.
- Willard, Alice. **Rivers of gold, oceans of sand: the Songhay in the west African world- system,** PHD. The John Hopkins University, Mary Land, U.S.A, 1999.

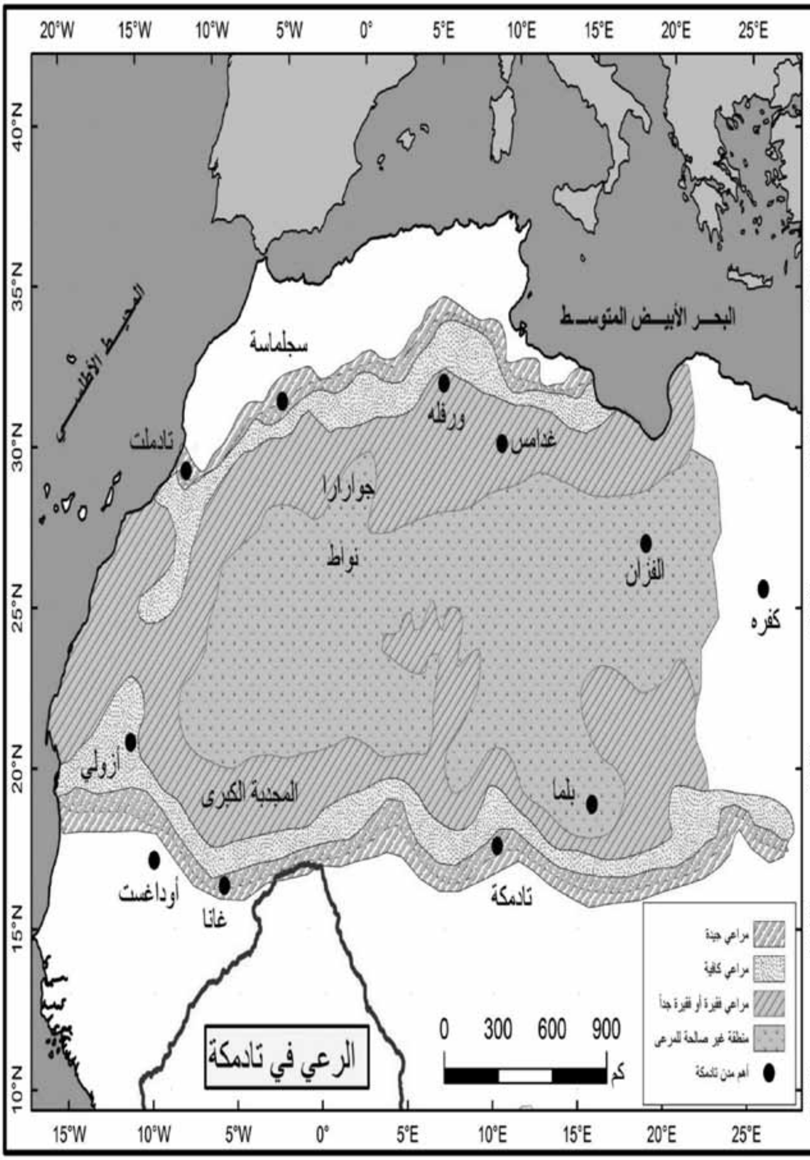
الملاحق

أولاً - الخرائط:

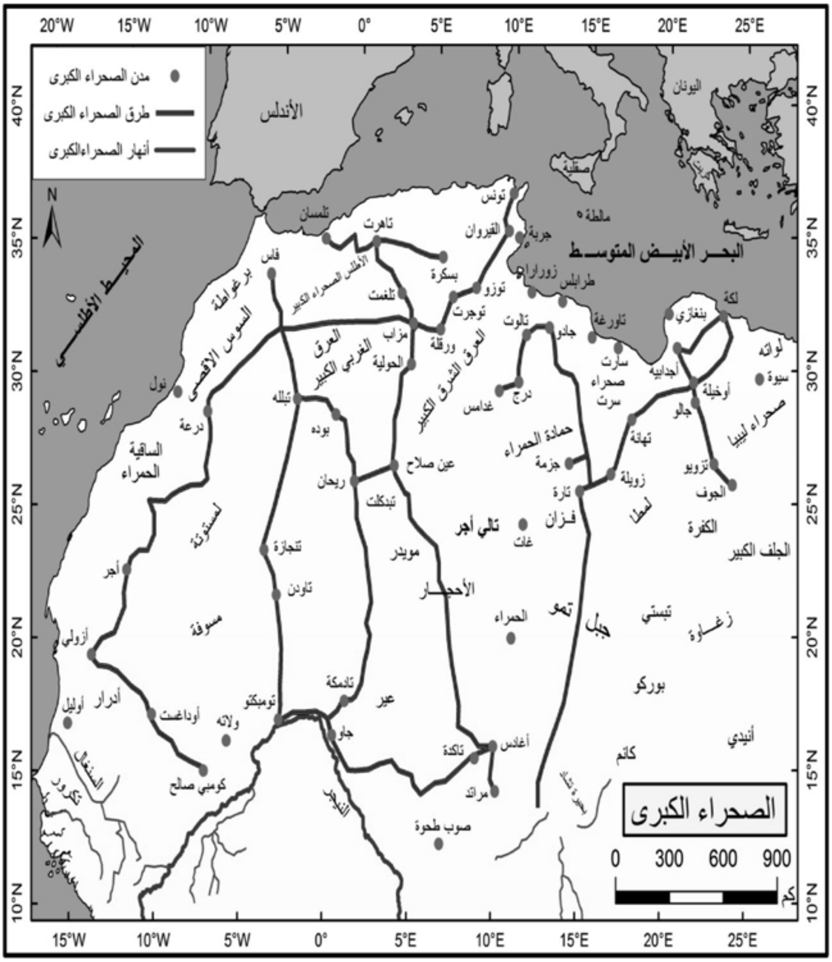
خريطة (1) : المسافات بين تادمكة وغيرها من المدن والممالك وفقًا للبكري



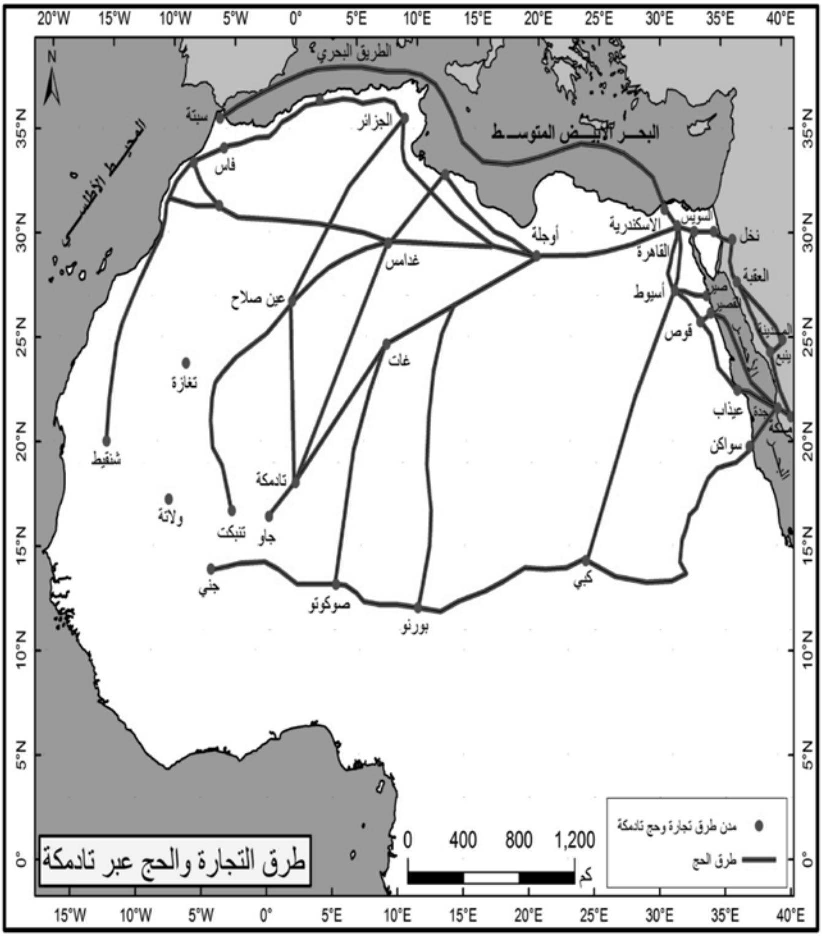
خريطة (2) : صلاحية موقع تادمكة للرعي في القرنين الرابع والخامس للهجرة



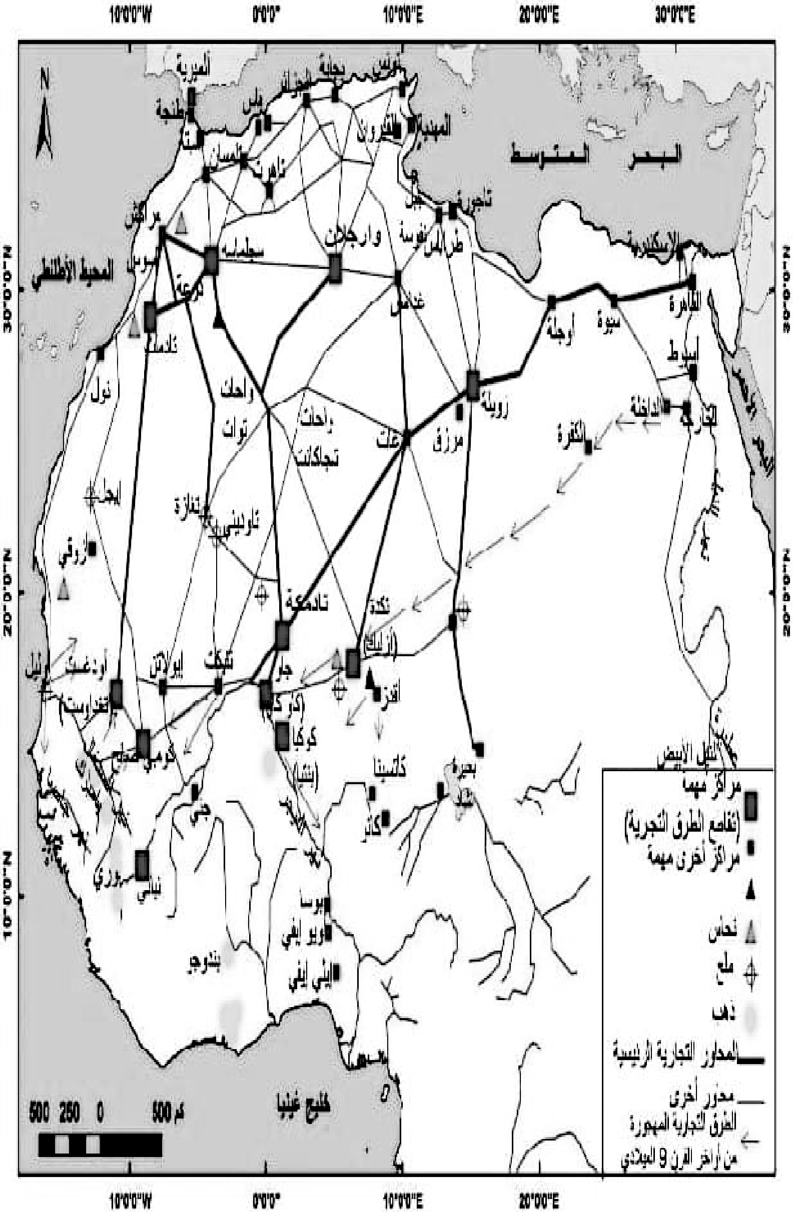
خريطة (3) : الصحراء الكبرى خلال فترة البحث



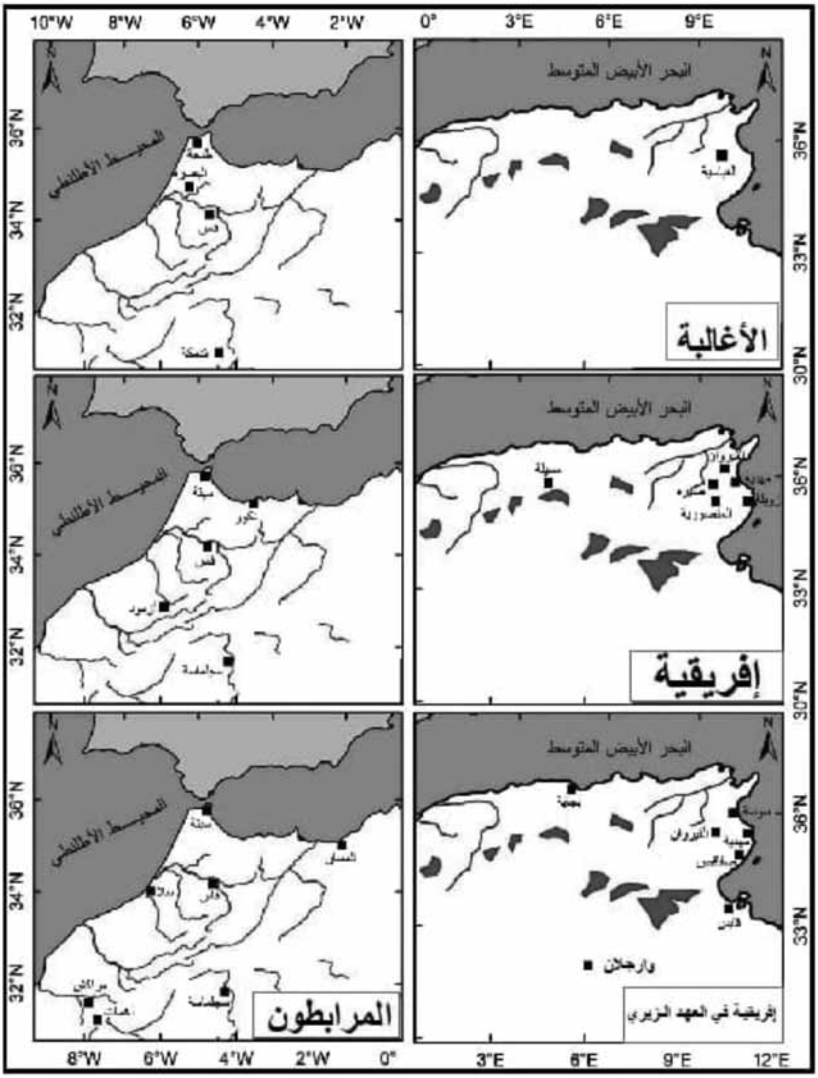
خريطة (4) : طرق التجارة والحج المارة بتادمكة



خريطة (5) : الطرق التجارية المارة بتادمكة

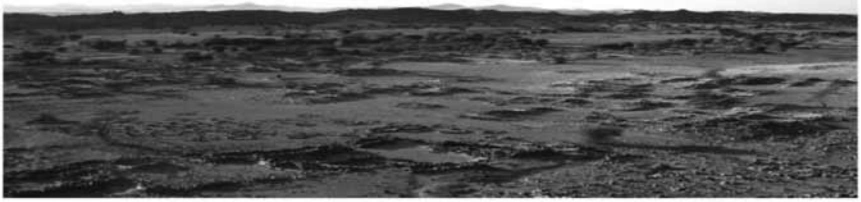


خريطة (6) : مراكز ضرب العملة ببلاد المغرب الإسلامي والصحراء الكبرى



ثانياً - الصور:

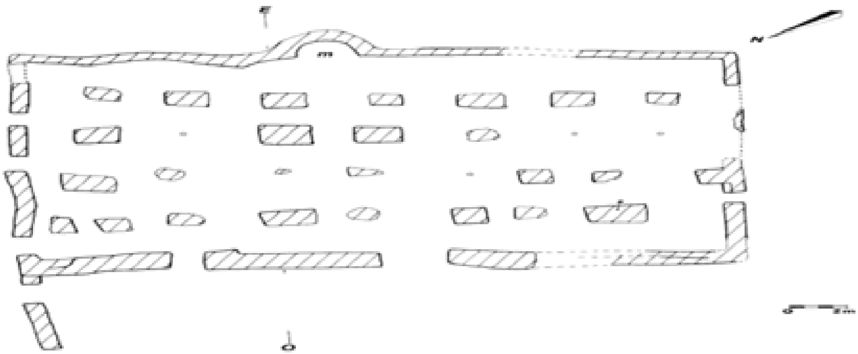
(1) : موقع أطلال تادمكة في دولة مالي



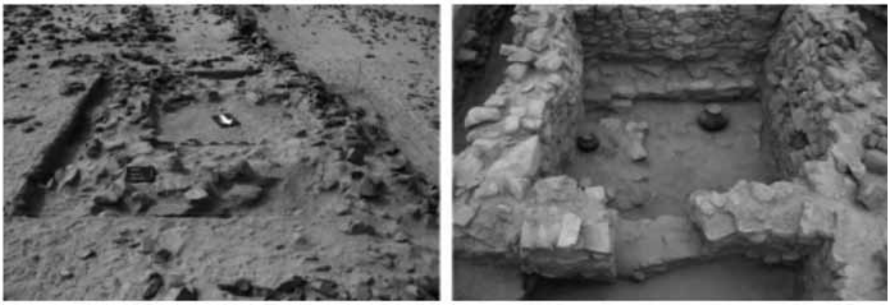
(2) : صورة توضح وجود أثر لمصلى معد لصلاة العيدين في موقع تادمكة



(3) : صورة تخطيطية لآثار المسجد الجامع المكتشف في موقع تادمكة/السوق



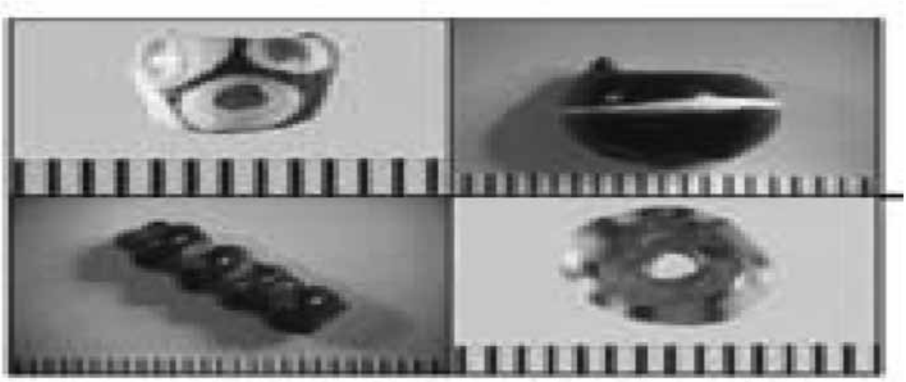
(4) : صورة للجدار الحجري لأحد مباني تادمكة



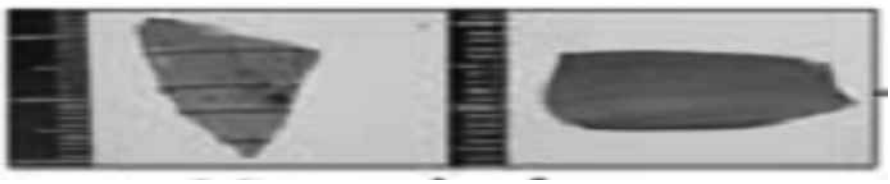
(5) : صورة لغرفة مبنية بالأحجار عثر عليها في موقع الحفر بتادمكة



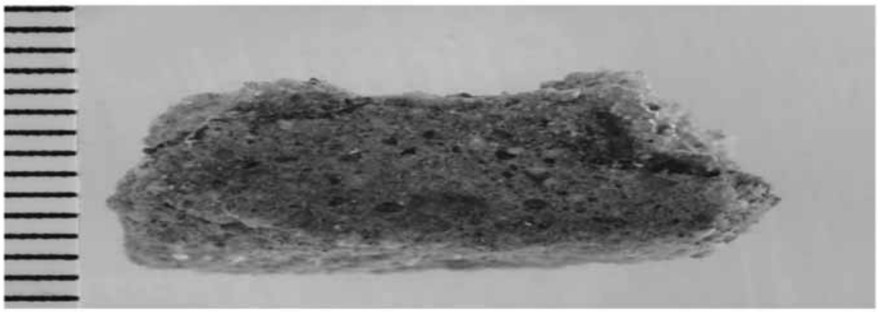
(6) : صورة للخرز الزجاجي من موقع تادمكة/السوق



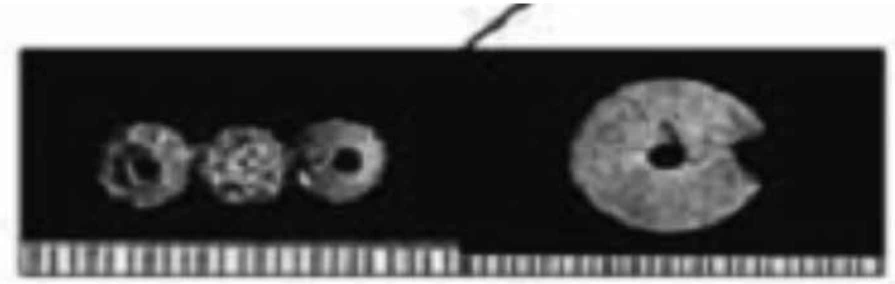
(7) : صورة لأوانٍ زجاجية من موقع تادمكة/السوق



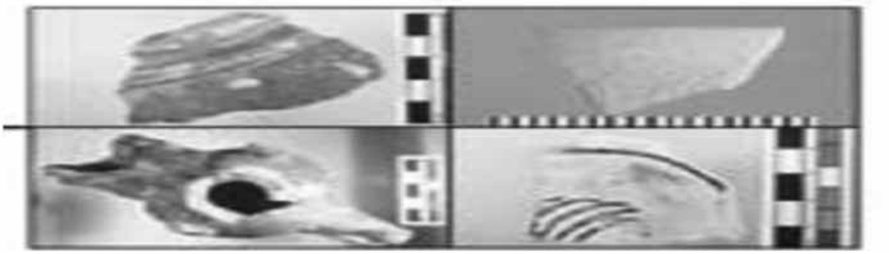
(8) : بوتقة لتصنيع الزجاج يظهر فيها الرمال وآثار تصنيع الزجاج باللون الأزرق الفاتح



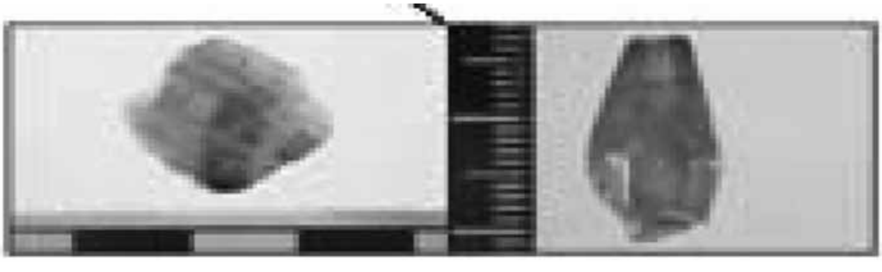
(9) : صورة للمواد النحاسية المكتشفة في موقع تادمكة/السوق



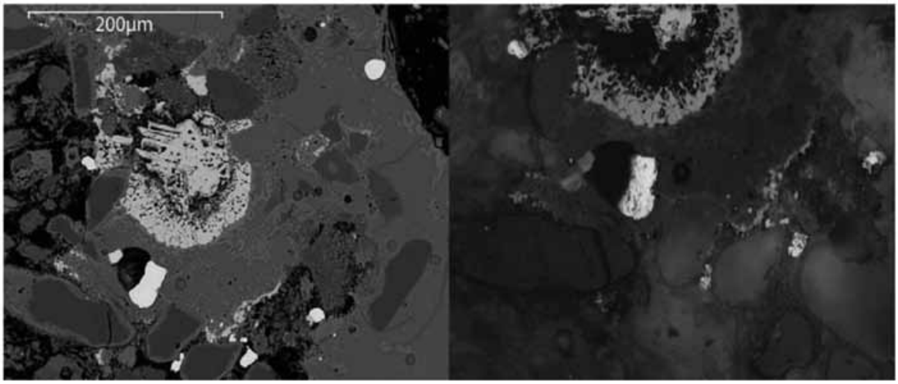
(10) : صورة للفخار المزجج من موقع تادمكة/السوق



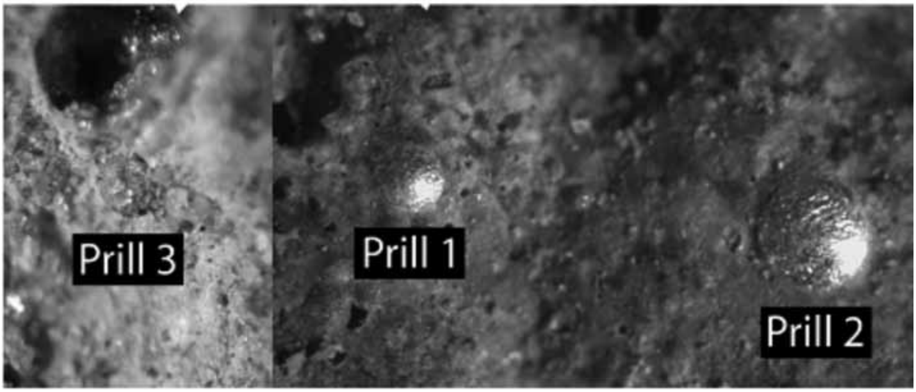
(11) : الأحجار شبه الكريمة من موقع تادمكة/السوق



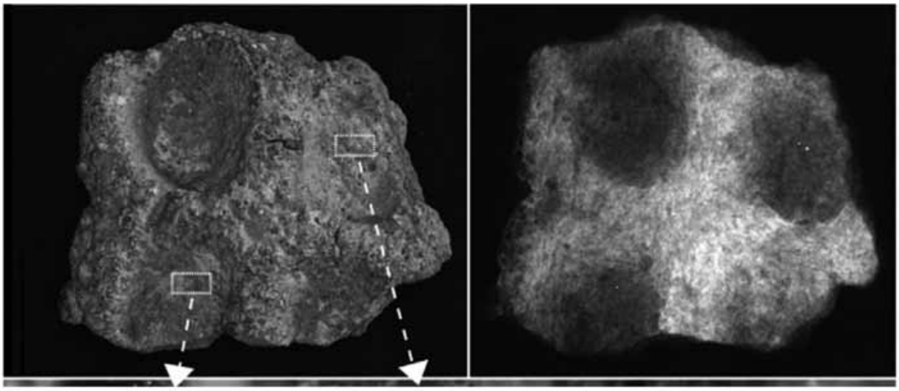
(12) : بوتقة عليها بقايا لقطع ذهبية وجدت في موقع الحفر بتادمكة



(13) : صور لقطع الذهب المكتشفة في موقع تادمكة



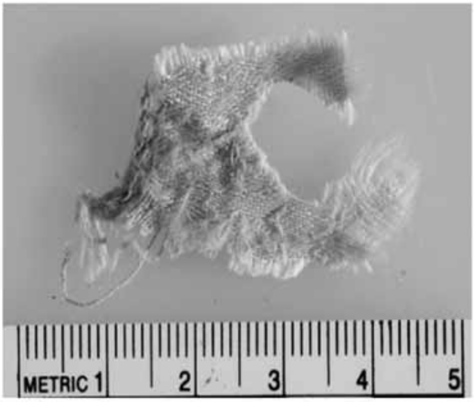
(14) : قوالب ضرب العملة الذهبية بتادمكة

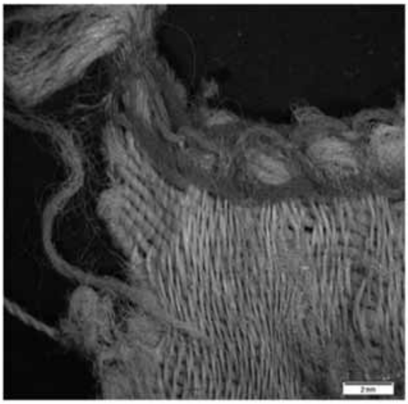


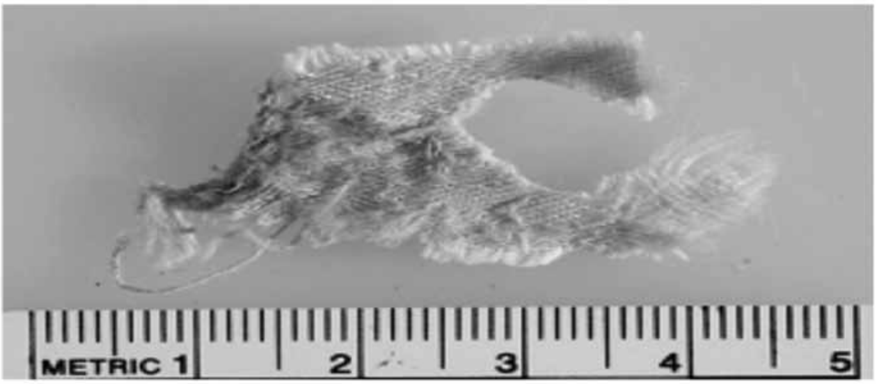
(15) : صورة لدينار ذهبي فاطمي يرجح ضربه في طرابلس عام 1072 – 1073م من الذهب المجلوب من تادمكة



(16) : صورة لقطعة قماش من الحرير الدمشقي المكتشفة في موقع تادمكة







(17) : **صورة لأحد النقوش المكتشفة في موقع وادي السوق مؤرخ بعام 404هـ**



(18) : **صورة لشاهد قبر مكتشف في موقع وادي السوق مؤرخ بعام 407 أو 409هـ**



(19) : صورة لبعض النقوش غير الجنائزية المكتشفة في موقع وادي السوق



(20) : صورة للنقشين المؤرخين في عامي 1011م، 1043-1044



(21) : صورة للنقشين المكتوبين بواسطة أسرة أبي بكر، ونقش ثالث يحث على قول لا إله إلا الله محمد رسول الله



Aspects of the Kingdom of Tadmekka's History in the light of Outcomes of Archaeological Excavations and Tombstone from the Third to the End of the Sixth Century AH / 9 - 12 AD

Abstract:

This study presents one of the Islamic kingdoms that has arisen in the eastern part of the Sahara region, separating between the Islamic Maghreb countries and the Western Sudan Empires. It is Tadmekka Kingdom, ruled by Berber Senhaja of BanuTanmak. The time period of the study extends from the middle of the third Hijri century to the end of the sixth Hijri century. The study is based on the results of archaeological excavations, funerary inscriptions on tombstones and some non-funerary inscriptions on rocks as well as on variable authentic documents which were presented at the same era of some geographers', wanderers' and historians' researches as well as biographies of Maliki and Ibadi Tabaqat. The study will follow the historical research methodology with its different tools such as narration, monitoring, analysis, criticism and causation, using the thematic division and considering the chronological order of events. It also takes advantage of auxiliary sciences of studying History especially Archaeology. The study seeks to answer some important questions: When did Islam spread in Tademekka? Was it a city or a kingdom? What were the salient features of the social, economic and political life in Tademekka? Finally, an important question arises such as what were the factors and causes that have led to the regression of Tademekka and its disappearance from documents?

Key words: Kingdom of Tadmekka, Western Sudan, Trans-Saharan Trade. Archaeological excavations and tombstones in sub-Saharan Africa.

The Author:

Dr. Batal Shaban Muhammad Gheriany

- Associate Professor of History and Islamic Civilization – History Department - Faculty of African Postgraduate Studies - Cairo University.
- Member of Union of Arab Historians, and Egyptian Society of Historical Studies.

Publications:

A - Books:

1- Al-Muhamashoon in the History of Sub-Saharan Africa...Al-Aamaa in the Islamic State of Songhay as a Model (869-1000 AH / 1464-1591 AD), Qiraat Afriqyia for Publishing, London, 2022.

2- War and Society in Western Sudan (726-1000 AH / 1325-1591 AD), Qiraat Afriqyia for Publishing, London, 2022.

B - Articles:

1- War and Mentality in Western Sudan Society during the 9-10 AH/15-16 CE centuries, Journal of African Studies, Cairo University, Institute of African Research and Studies, No. 36, 2014.

2- The scientific impact of the Tizmantyin Shafi'i scholars in the period between the 7-9 AH/13-15 CE, Journal of Egyptian Historical and Civilization Studies, Faculty of Arts, Beni Suef University, No. 2, April 2017.

3- Al-Zamana and People with Disabilities in the Hijaz, Levant and Iraq during the First and Second Centuries of Hijra, Journal of the Faculty of Arts, Cairo University, No. 79, Volume 5, July 2019.

4- War and Social Structure in Western Sudan (726-1000 AH/1325-1591 AD, Annals of the Seminar on Islamic and Medieval History, Egyptian Society of Historical Studies, No. 7, 2019.

5- The Commercial Links of the City of Gao in the light of Outcomes of Archaeological Excavations, A Study for the period from the 4-6th century Ch. 2, 2020.

6- Aspects of the Craft Activities of the Sufis of the Far Maghreb in Egypt during the 6-7 AH/12-13 CE centuries, Research Journal of the Faculty of Arts, Menoufia University, Issue No. 121, April 2020.

7- Myth and History in Western Sudan (628-1000 AH / 1230-1591 AD), Journal of the College of Arabic Language in Itay al-Baroud, No. 33, October 1441 AH / 2020AD.

8- The Role of Slaves during the Royal Pilgrimages in Western Sudan, the Era of the Kingdoms of Mali and Songhay, Journal of Egyptian Historical and Civilization Studies, No. 9, October 2020.

9- African Historical Studies at the Faculty of African Postgraduate Studies, Cairo University: A Descriptive and Analytical Reading of the Dissertations in the Department of History, Qiqaat Afriqyia Journal, No. 50, October 2021.

10- The History and Civilization of the Comoros during the first six centuries of Hijra, History and Future Magazine, No. 36, January 2022.

Monograph 605

Aspects of the Kingdom of Tadmekka's History in the light of Outcomes of Archaeological Excavations and Tombstone from the Third to the End of the Sixth Century AH/9-12 AD

Batal Shaban Muhammad Gheriany,Ph.D.

History Department - Cairo University

Egypt